

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00969 8907

JC
350
.76
198



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

The A

من مكتبة

الجامعة الأمريكية بالقاهرة



... is the man that
getteth wisdom and
the man that getteth
understanding ++ ++

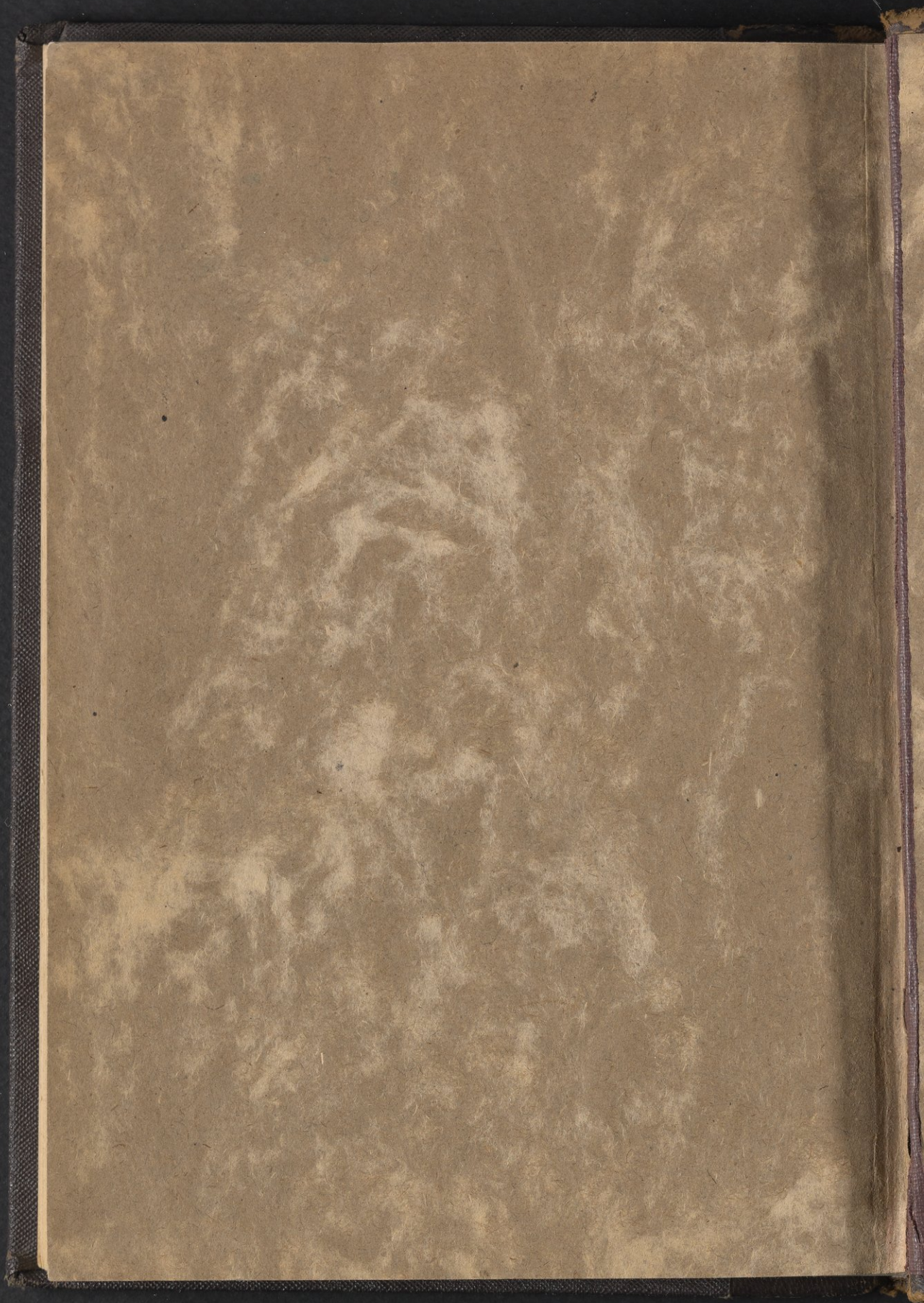
PROVERBS 3-13

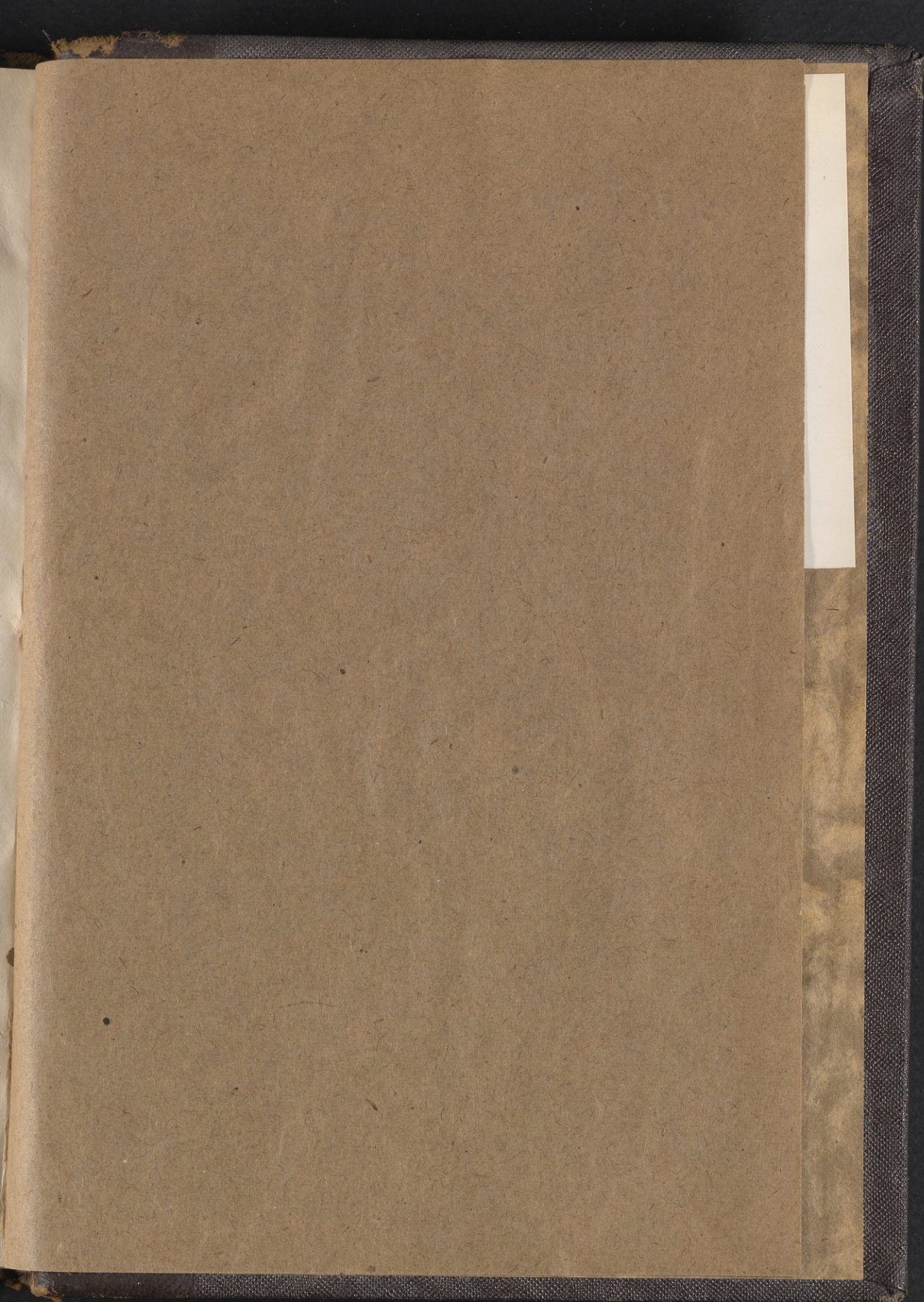
ex libris datus

in memoriam

Polk Mc Kinney

Pittsburgh, Pennsylvania





الاستعمار

والمذاهب الاستعمارية

JC

359

M84

1953

تأليف

الدكتور

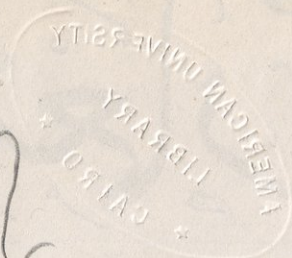
عبد عوض محمد

الناسخ

دار الكتاب العربي بمصر

محمد باهي الميناوي

{ 325-3 }
M725c }
Mck- }



WCO, W
1.35

31531

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أقدم للقارئ العربي هذه الصفحات ، في وصف الاستعمار ومذاهبه ، غير قاصد منها إلى سرد تاريخ الاستعمار ؛ في أى عصر من العصور القديمة أو الحديثة لأن هذا التاريخ الطويل جدير أن يستوعب المجلدات الضخمة والجهود الدائبة لقافلة من المؤرخين . وهناك أسفار عديدة تروى تاريخ الاستعمار ، تارة في دقة وأمانة ، وطوراً في زهو وكبرياء ، وأحياناً في تبجح واستعلاء ؛ وامتنان على الشعوب المغلوبة على أمرها . وذلك تبعاً لنزعات الكتاب وميولهم ، والسياسة التي يروجون لها .

غير أن الهدف المنشود من نشر هذه الفصول ، هو التعريف بالاستعمار ، من حيث هو ظاهرة سياسية تسود العالم ؛ وتخلق علاقات بين الأمم والشعوب ، لا تنطوي على المساواة والعدل ، بل على القوة والبغي .

لذلك بدأنا البحث بشرح فكرة التعاون بين الدول في القوة والسلطان ؛ محاولين أن نوضح الأسس التي بنى عليها هذا التفاوت . إذ لا شك أن اعتماد القوى بقوته وجبروته واستغلال هذه القوة استغلالاً مجحفاً ظالماً هو أساس الحركة الاستعمارية في كل عصر . ثم حاولنا بعد ذلك أن نعرف ظاهرة الاستعمار تعريفاً دقيقاً علمياً

بقدر الإمكان . حتى نجردها من كل ما يحيط بها من الأوهام والترهات .
وقد هدى البحث إلى أن للاستعمار مذاهب وطرائق ، بعضها
ينحو ناحية القهر والغلبة ، وبعضها يرمى إلى الاستغلال المالى ،
وبعضها يقال عنه أنه أملت الضرورة العسكرية . لذلك لم يكن بد بعد
أن نحاول شرح هذه المذاهب ، أن نعرض إلى تلك الأنواع ، وأن
نضرب أمثلة مستقاة من حوادث التاريخ ، لكي تكون معالجتنا
مبنية على الواقع المشاهد الملموس .

وقد استقيننا هذه الأمثلة من جهات شتى ، وأكثرها مما يتعذر
على القارئ أن يعثر عليه في كتب التاريخ المتداولة . وعلى الأخص
في المؤلفات الانجليزية ، وهى النوع الشائع في البلاد العربية .

كذلك لم نستق أمثلتنا عن الاستعمار من أحداث الشرق
الأوسط أو البلاد العربية إلا نادراً ، لأن معظم الأحداث التى
تعرضت لها هذه البلاد معروفة للجميع . ولم نستثن من ذلك سوى
مشكلة الاستعمار الصهيونى ، الذى أفردنا له وصفاً مطولاً لأن أبناء
البلاد العربية مع الأسف لا تكاد حتى اليوم تدرك تمام الإدراك
خطر هذا الاستعمار . مع أنه أشد وأضخم من أى خطر آخر تتعرض
له البلاد العربية اليوم . وذلك لأن الاستعمار الأوروبى يهددنا من
الخارج ، أما الاستعمار الصهيونى فقابع فى قلب البلاد العربية ، كالداء
الوبيل السامن فى الجسم . والدول الاستعمارية تتناول سياستها
ومشاريعها أقطار عديدة ، ولها خصوم أشداء يناصبونها العدا .

أما الصهيونيون فإن مشاريعهم كلها منصبة على البلاد العربية ؛ وليس لهم خصم أو عدو سوى الشعوب العربية فكل جهودهم موجهة إلى الوطن العربي وكل شئورهم مكرسة لإلحاق الأذى بالبالغ بأبناء ذلك الوطن .

فإلى القارئ العربي أسوق هذه الفصول وأنا مؤمن بأن الموضوعات التي نتناولها هي أجدر الموضوعات بالتأمل والدراسة .
والله ولى التوفيق ؟

محمد عوضه محمد

الإسكندرية فى { شعبان ١٣٧٢
مايو ١٩٥٣

فصول الكتاب

صفحة

فاتحة الكتاب	ج
مقدمة : عالم نصفه عبد ونصفه حر	٣
الفصل الأول : المسرح الجديد للسياسة الدولية	١٠
الفصل الثاني : الاستعمار قديماً وحديثاً	٢٩
الفصل الثالث : الانتداب والوصاية والاستعمار	٥٢
الفصل الرابع : الاستعمار العسكري	٧٣
الفصل الخامس : حرب الأفيون	٨٦
الفصل السادس : أمر تسار مثال الوحشية الاستعمارية	١٠٢
الفصل السابع : الاستعمار الصهيوني	١١٩

الاستعمار

والمذاهب الاستعمارية

تختیاری

تختیاری

مقدمة

عالم: نصفه عبد ونصفه حر

في جميع أرجاء الأرض أقطار يصفها الناس بأنها « ممتلكات » ولأن يكون من الصعب عليك أن تتعرف عليها . فهي مصبوغة في الخرائط الجغرافية بمختلف الألوان من حمراء وزرقاء وخضراء هذه ممتلكات بريطانية ، وتلك فرنسية ، والآخرى بلجيكية . وليست هذه الممتلكات قطعاً صغيرة أو أقطارا محدودة المساحة . بل كثيرا ما تشمل قارة من أكبر القارات وأضخمها كقارة أفريقيا كلها التي ليس فيها قطر واحد ، بل ولا شبر واحد من الأرض لم يزرع هو وسكانه في وقت من الأوقات تحت نير الحكم الأجنبي في مختلف صورته وأشكاله . ومصر نفسها التي لم تكن يوم ما جزءا من ممتلكات بريطانيا ، كثيرا ما صبغت في الخرائط باللون الأحمر وكثيرا ما تحدث عنها ساستها في ساعات الغفلة بأنها داخلة في ذلك النطاق المرن المسمى بالامبراطورية البريطانية .

فعالما اليوم منقسم إلى قسمين : مالك ومملوك — والمالكون فئة صغيرة من سكان هذا الكوكب والمملوكون أقطار واسعة فسيحة ، وشعوب كبيرة العدد : متنوعة الأجناس والألوان . .

هذه هي أعظم الظاهرات السياسية في عصرنا هذا ، وأحقها بالدراسة والبحث . ومهما حاولنا أن نلطف من هذه الظاهرة ، فأننا لن نستطيع أن نصفها إلا أنها عبارة عن استعباد سياسي ، فان العلاقة بين الطرفين لا يمكن وصفها إلا بأنها كعلاقة الحر بالعبد — والسيد بالمسود . فالشعب المالك يتمتع بحريته ويسير وفق إرادته . والمملوك مسير لا يخير ، ليس له من الإرادة في تصريف أمره وتكييف مجرى حياته إلا بمقدار ما يسمح به سيده . المالك المهيمن .

ولقد يحصل المالك على مملوكه هذا بواسطة البيع والشراء ، كما اشترت أمريكا ألسكا من روسيا ، والفلبين من أسبانيا ، وقد يستولى عليه بالفتح والغزو — كما استولت إيطاليا على أثيوبيا وليبيا — أو بالمكر والخديعة . أو بمزيج من التموية والغزو كما فعلت بريطانيا في احتلال مصر ؛ بل قد ينال المالك بعض الممتلكات عن طريق الهبة أو الهدية كما حصلت بريطانيا العظمى على جزيرة قبرص من الدولة العثمانية في مقابل خدمة قدمتها لها — حتى وصفها الكتاب بأنها من قبيل « السمسرة » .

وهكذا نرى أن المقارنة بين ظاهرة الاستعمار الدولي وبين العبودية الفردية مقارنة لا تتناول المظهر العام وحده ، بل تتجاوزها إلى التفاصيل الجزئية أيضا . ولذلك ليس من الإسراف في شيء أن نصف الاستعمار بأنه استعباد سياسي تصبح فيه إرادة الشعوب

وحياتها مسخرتين لإرادة الشعب المالك ، وللسياسة التي يريد أن يسلكها .

ولسنا نريد أن نزعم أن الاستعمار يتخذ صورة واحدة في جميع الظروف والأحوال . فكما أن علاقة السيد بالعبد قد اختلفت باختلاف الزمان والمكان ، وباختلاف نزعات السادة ، وما قد يكون للعبد من مزايا أو من استعداد خاص ؛ كذلك يتخذ الاستعمار اليوم صوراً شتى ، فقد يؤدي إلى التسلط التام على الأرض وسكانها - كما هي الحال مثلاً في كينيا - حيث زُحزح السكان الأصليون عن أرضهم ، وحرموا حق الانتفاع بها ، لكي يملكها ويستغلها المستعمر الأجنبي . ومن الجائز أن تترك الأرض لسكانها يستغلونها ويزرعونها كما هي الحال في غرب أفريقية ، على أن يجري هذا الاستغلال وفق إرادة الدولة صاحبة السيادة . وقد يكتفي المستعمر أحياناً بحق الاحتلال العسكري ، أو حق « التدخل » في طائفة من الشؤون يرى من الواجب أن تسير وفقاً لمصلحته ، وإن خالفت مصلحة السكان أصحاب البلاد الشرعيين .

وليس الاستعمار بالأمر الحديث . فقد شهد العالم القديم إنشاء دول ضخمة مثل امبراطورية بابل وآشور وإيران ، ومثل الدولة الرومانية . وفي العصور الوسطى قامت الدولة العربية واتسعت رقعتها حتى شملت شطراً كبيراً من العالم القديم . كما أنشأ المغول دولاً عديدة في شرق آسيا وغربها ، حتى بلغ سلطانهم القارة الأوروبية نفسها .

لكن هنالك فروق واضحة بين الاستعمار القديم والحديث
وسنحاول إظهارها في الفصول التالية ومنها سيتبين أن الاستعمار
الحديث في ظروفه وملايساته ، التي نشاهدها اليوم ، هو اثم من
أكبر الآثام ، وإجرام بشرى ليس له نظير في التاريخ كله .

ومن العجيب في هذا الاستعمار الحديث الذى يشمل فيه
أسوأ مظاهر الاستغلال والاستبداد والتخريب والتدمير ، أنه
من صنع دول تدين كلها — عدا اليابان المقلدة — بالدين المسيحى ،
وهو ذلك الدين السمع الكريم ، الذى شعاره الحب والعطف
والمساواة . فقد استطاعت دول أوربا أن تمسخ المسيحية مسخاً
شديداً ، بحيث استحالت فى دماء سكانها إلى صلف وتكبر وتعاضم
وإلى تعصب ممقوت ، لم يلبث بعد أن سفك من دماء الأوربيين
ماسفك ، وألحق بهم من الدمار ما ألحق ، أن تحول إلى بنى وعدوان
على شعوب الأرض جميعاً ، يتسلط عليها بروح من الجشع والتعالى
هى أبعد ما تكون عن روح الدين المسيحى الكريم .

ويأبى العدل الإلهى إلا أن يحقق المكسر السىء بأهله ، وأن
يكون الاستعمار سبيلاً إلى تعذيب الدول الاستعمارية وإذاقتها ضروب
الويل والشقاء ، فقد كان لبعض الدول فى الميدان الاستعمارى ميزة
السبق لأنها دخلته قبل سواها . ولذلك رأينا دولة صغيرة مثل
البرتغال لها ممتلكات واسعة ، وهولندا تبسط سلطانها على جزر
الهند الشرقية ، وبريطانيا تستولى على الهند فى وقت مبكر ، قبل

أن تتكون دول مثل إيطاليا وألمانيا . ثم جاءت الحركة الاستعمارية الحديثة في القرن التاسع عشر ، فاستولت بريطانيا على نصيب الأسد في أفريقية ودخلت ألمانيا وإيطاليا الميدان متأخرتين فلم تفز ألمانيا إلا بنصيب زهيد ، وكان نصيب إيطاليا بالغاً حد التفاهة . فاشتد التنافس ، وأخذت الدول يكيد بعضها لبعض ، وتنافس في بناء الأساطيل واتخاذ الأهمية للحروب . ومهما حاول المؤرخون أن يجدوا أسباباً مختلفة للحروب العالمية الأولى والثانية ، فليس هناك أدنى شك في أن أهم تلك الأسباب التنافس الشديد في الميدان الاستعماري ، وحرص كل دولة كبيرة على أن تنال ماتدعوه «نصيبها» من التوسع والتملك . فقد جعلت السياسة الاستعمارية شهوة التملك أمراً مألوفاً كأنه حق من الحقوق المقررة .

وهكذا نرى شهوة الاستعمار تسمم العلاقات الدولية وتوغر صدور الأمم ، وتوقد نيران حروب تلتهم الأخضر واليابس وتزداد فتكاً وتخريباً على مدى الاجيال . كذلك نرى الاستعمار قد أفسد الأخلاق السياسية ، وانحط بها إلى الدرك الأسفل من الكذب والرياء والتضليل ، واخلاف العهود ، والحنت بالإيمان والمواثيق ، حتى رأينا دولة مبجلة مثل بريطانيا العظمى يطلق عليها الكتاب في أوروبا اسم البيون الحانت Albion Perfide

ولكن هذا الخلق لم يلبث أن شاع وانتشر ، وهذه البذرة الشريرة لم تزل تنمو وتتكاثر على مدى الزمن حتى رأيناها تنضج في

أكمل صورها وأضحىها في سياسة ألمانيا النازية ، التي استطاعت أن تتقن التقليد كل الاتقان ، وأن تجارى في نقض العهد والخيانة أبرع الدول في هذا الميدان .

هذا وقد تناولت شهوة الاستعمار الأوربي بلاد العالم العربي كما تناولت غيره من الأقطار . وبيّنت له شر النيات وأضرمت له خططاً كلها ظلم وارهاق ، مع أن العالم العربي وارث حضارات مجيدة ، وطالما رفع لواء العلم والعرفان ، واستظل العالم بفضله ظل الأمن والعدل دهرًا طويلًا . فلم تتورع المخالب الاستعمارية من أن تنشب أظفارها في قلبه ، وأن تكيد له أمر الكيد . واشتد غيظ الاستعمار حين رأى أن الشعوب العربية تأبى الضيم ، وتحرص أشد الحرص على أن تنعم أوطانها بكامل حريتها واستقلالها . وزاد في غيظه أن رأى أن أبناء هذه الشعوب لا يقلون عن المستعمرين ذكاء وفهما ، ويستطيعون أن يجاروهم في ميدان التقدم والرقى . فاضطر الاستعمار لأن يسفر عن حقيقته البشعة ، فأخذ يرتكب الإثم والمنكر جهاراً فلا يتورع عن الالتجاء إلى أسلحة التخريب والتدمير ، ويصب على الأمم البريئة جام غضبه لأنها لم تخضع ولم تهن وحاول أن يغرر بها باتخاذ أسماء جديدة مثل الانتداب والوصاية والحماية ، فلم تؤثر فيها الخديعة ولا الرياء ، بل مضت في جهادها لنيل حقها الشرعى في الحرية والحياة الكاملة .

وما أجددنا ، نحن أبناء البلاد العربية ، التي ما برحت تكافح
الاستعمار والمستعمرين ، أن ننعم النظر في الأسس السياسية الدولية
التي تولدت منها ظاهرة الاستعمار الحديث ، وأن نفكر في طبائع
هذا الاستعمار وأساليبه وأن نحلل تلك الظاهرة تحليلًا علميًا ، يكشف
لنا عن خصائصها المختلفة .

وذلك ما سنحاوله في الفصول التالية .

المسرح الجديد للسياسة الدولية

الأرض ملعب — كما قال شكسبير — والناس على ظهرها
فرقة تمثيل . . . وهؤلاء الممثلون ضروب وشكول ، وألوان ،
منهم الجليل والضئيل ، ومنهم القصير والطويل ، والبدن والنحيل ،
والتافه الذى لا يؤدى إلا عملاً تافهاً مثله ، والقوى الجبار الذى
يحتل صدر المسرح ، ويروح ويغدو فى زهو وكبرياء . ومنهم
القسيم الوسيم ، الحسن البزة والشارة ، المدجج بالسلاح من قمة رأسه
إلى أخمص قدمه ، ومنهم من يسعى فى أسمال بالية وثياب ممزقة رثة
وهو أعزل من السلاح ، وقد ألحت عليه الأمراض والعلل ، فسعاله
لا ينقطع ، ودمعه لا يرقأ . . . وفى الممثلين طوائف لها صور
وأجسام ، وليس لها إرادة ولا روح . إذا تحركت أو ضحكت فإنها
لا تفعل ذلك بمحض رغبتها وإرادتها ، بل لأن وراء الستار شخصاً
يحركها ويضحكها ، وذلك بواسطة حبل يمسكه بيده ، يجذبه ذات
اليمن فتتحرك ذات اليمين ، ويجذبه إلى الشمال فتتحرك نحو الشمال .
ثم يديره إدارة فنية فترقص تلك الصور وتلعب ، أو تضحك
وتترب . .

وللقارئ الحق — كل الحق — فى أن يصف ما يجرى على
المسرح بأنه مأساة أو مهزلة أو ملهاة أو رواية كما قال شوقي لم تتم
فصولها . فذلك أمر متروك لحصاة القارئ ولبقائه . .

ولست أدري هل تجرى في الكواكب الأخرى مثل المشتري والمريخ وزحل روايات كالتى تجرى وتمثل على ظهر كوكبنا الصغير وباليتمنا كنعرف ، حتى نستفيد به من المقارنة والموازنة . لأن الشئ لا يعرف مقداره ، كما قيل ، إلا إذا قيس إلى غيره ، فأما ونحن فى حالة جهل تام بما يجرى فى تلك الكواكب العظيمة ، فإنى أستطيع أن أزعم أن روايتنا أبدع الروايات ، وأنها أبعد للأسى والألم والضحك والتسلية فى آن واحد مما يجرى فى أى كوكب آخر . ومن شاء أن يأبى على هذا الزعم فليستفضل ويثبت دعواه ، ويقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان .

والآن — وقد مهدت لموضوعى بهذه المقدمة الوجيزة ، يمكنى الآن أن أدعو القارئ لأن يجلس معى لتأمل فى هذا المسرح الطريف ، ولنلقى نظرة على أكابر الممثلين فيه .

قضى النظام — أو إن شئت عدم النظام — السياسى لعالمنا هذا أن يقسم سطح الأرض إلى أقسام تسمى وحدات سياسية ، وهذا التقسيم يشمل سطح الأرض كله ، أو على الأقل ذلك الجزء من سطح الأرض الذى لم تغمره البحار والمحيطات ، وتركته جافاً يابساً ، طافياً فوق سطح الماء . واستولى الإنسان على هذا اليابس وقسمه إلى وحدات سياسية ، بحيث لم يترك شبراً واحداً من الأرض إلا أدخله فى واحدة منها . وهذا التطور السياسى الكبير ، لم يتم كله إلا فى نهاية القرن الماضى ، ورسم الإنسان بين هذه الوحدات « حدوداً » ترينا فى وضوح وجلاء أين تبدأ كل وحدة وأين تنتهى ، وأمكننا بذلك أن نقدر مساحتها وعدد سكانها .

ومع أن هذه الحدود والتقسيمات السياسية من صنع الإنسان ، وليست منطبقة دائماً على ظاهرات طبيعية ، فإنها أصبحت — برغم ذلك — محاطة بنوع من الحرمة والقداسة ، كأنها جبال قائمة لا تتزعزع . ولا بد من حروب دموية ، ومعارك طاحنة لكي تحرك هذه الحدود عن مواضعها .

وهكذا أصبح هذا العالم الإنساني مقسماً إلى وحدات تختلف في الحجم (المساحة) وفي عدد السكان ، وفي موارد الاقتصاد ، وفي حظهم من الرفاهية والرخاء والتعليم ، وإذا صرفنا النظر عن الأقطار التابعة لغيرها ، تبقى لدينا وحدات سياسية نسميها «الدول» تتصرف كل دولة منها في مساحة محدودة من سطح الأرض ، هي صاحبة الأمر والنهي فيها إلى حد كبير . ولا أستطيع أن أذكر عدد هذه الدول على وجه التدقيق خشية أن يفوتني بعضها — ولكن عددها من غير شك يربو على الستين — ولكيلا يكون هناك مجال للبس أريد أن أنص صراحة على أن هذه الدول تشمل دولة مثل كندا وأستراليا واتحاد أفريقيا الجنوبية ، وزيلندة الجديدة وإيرلندة الحرة . فإن هذه كلها دول ذات سيادة ، وإن كانت داخلة ضمن الاتحاد البريطاني .

قضت الظروف إذن أن يقسم سطح اليابس بين نيف وستين دولة منفصلة غير متساوية ولا متكافئة ، وإذا كنا نحن معشر الأدميين لا نتساوى كأفراد لا في الطول ولا في العرض ولا في الوزن ، ولا في الثقافة والعلم والسن ، فيجب ألا نمجب إذا رأينا

الدول تتفاوت هي أيضاً في الحجم والوزن وغير ذلك من الاعتبارات .

وقد ترتب على ما نشاهده من الاختلاف الكبير بين الدول أن أصبح بعضها يدعى صراحة الدول الكبرى . وقبل الحرب كان في العالم سبع دول كان يطلق عليها باتفاق الجميع هذا الوصف . ولا أعرف أن كاتباً أو مفكراً سياسياً قد حاول أن يتحدى هذه التسمية أو ينادى ببطلانها . من هذه الدول خمس في أوروبا وهي ، بحسب الترتيب الأبجدي ، ألمانيا وإيطاليا وروسيا وفرنسا والمملكة المتحدة . وإثنتان خارج أوروبا وهما الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية ، واليابان في آسيا .

وهذا التمييز بين الدول اعترفت به عصبة الأمم في نظمها ودستورها ، إذ خصصت لكل من الدول الكبيرة أثناء وجودها في حظيرة العصبة ، كرسيّاً ثابتاً في مجلس إدارتها ، بينما ينتخب من الدول الأخرى عدد محدود ليكون في المجلس بضع سنين ، ثم يخلى مكانه لغيره من الدول غير الكبيرة .

وقد أحفظ هذا النظام بعض الدول التي كانت تطمح في أن تدخل في نطاق الدول الكبرى ، وأرادت أن يكون لها كرسي ثابت لا يتزعزع في مجلس العصبة . وهذه الدول هي — بوجه خاص — البرازيل ، وأسبانيا ، وبولندة . فتقدم كل منها في وقت من الأوقات يطالب بمكان ثابت في المجلس ، ولكن طلبه قوبل بالرفض التام واستقرت البرازيل بعد ذلك من العصبة ، ولم تشترك

في أعمالها . ولا شك أن هذه الدول الثلاث في حالة وسط —
أى أنها على هامش الحدود بين الدول الكبيرة وغير الكبيرة —
وقد عز عليها بوجه خاص أن ترى ألمانيا وهي الخصم للدود تنضم
إلى عصبة الأمم عام ١٩٢٥ فتمنح مكاناً دائماً في المجلس ، وتحرم
هـي ذلك الامتياز .

والآن يحسن بنا أن نفكر قليلا في المقياس الذى تقاس به
الدول ، إذا كان من الممكن أن نجد هذا المقياس ، والذى بمقتضاه
سمحنا لأنفسنا أن نصف دولة مثل إيطاليا واليابان بأنها من
الدول الكبيرة ، وأبيننا أن نطلق هذا الوصف على دولة مثل هولندة
وبولندة والبرازيل والسويد .

ولنبداً بحثنا باستعراض العناصر المختلفة التى تتميز بها الدولة
التي نتمكن من الموازنة بين تلك العناصر لعنا نهتدى إلى أيها
أكبر خطراً في تصنيف الدول ورفع بعضها فوق بعض درجات .
فإننا إذا وصفنا رجلاً بأنه عظيم فلا بد لنا أن نبني هذا الوصف على
بعض الاعتبارات الجسدية أو الثقافية أو العقلية أو المالية ، أو
على هذه كلها أو بعضها . أما في الدول فإننا نستطيع أن ننظر إلى
الأمور الآتية : المساحة — عدد السكان — درجة الثقافة والتعليم —
حظ الأمة من الرخاء وخفض العيش — مقدرة الشعب الاقتصادية
(الإنتاج الزراعى والصناعى) امتلاك المستعمرات — التفوق الحربى .
وعلى الرغم مما قد يعترى القارىء من الضجر لا بد لنا أن نعرض
لكل من هذه العناصر على حدة :

١ - المساحة :

لننظر أولا إلى المساحة — فإن الاختلاف فيها معناه أن بعض الدول تستأثر بنصيب عظيم من سطح اليابس وتتفوق في هذا على غيرها من الدول . ولا شك أن بعض الدول الكبيرة ذات مساحة عظيمة مثل الولايات المتحدة وروسيا . ولكن أراضى سائر الدول الكبرى متوسطة في المساحة — فإيطاليا أصغر مساحة من بولندة وأسبانيا وفنلندة وبلاد السويد والنرويج وتركيا . والمملكة المتحدة (المؤلفة من إنجلترا وبلاد الغال واستكلندة وشمال أرلندة) أقل في المساحة من إيطاليا وبالتالي فهي أقل من تلك الدول ومن دول أخرى كثيرة مثل يوجوسلافيا ورومانيا .

وكذلك إذا نظرنا إلى دول عظيمة الرقعة مثل البرازيل (وهي تزيد على أوربا) أو استراليا أو كندا فإننا نجد مساحة هائلة ولكن الدول التي تسيطر عليها ليست معدودة في الدول الكبرى . فهل معنى هذا أن المساحة عنصر قليل الخطر لا يقام له وزن بين الدول ؟ وكيف يمكن أن تكون المساحة عنصر أضعف الخطر مع أن الأرض هي « المجال الحيوى » وهي موطن الشعوب ومصدر خيراتها وينبوع ثروتها . . . ومن أجل الأرض تناحرت الشعوب واستعرت الحروب . . . ولئن كانت ألمانيا قد أثارت في العالم حربا شعولاء من أجل إقليم صغير يدعى دانزج — فكيف يجوز لقائل أن يزعم أن الأراضى ليست بالامر الكبير الخطير ؟ .

والرد على هذا الاعتراض هو التسليم بأن المساحة عنصر من عناصر القوة لكل دولة من الدول ، ولكن الدول — مع هذا — لا تتفاوت ولا يفضل بعضها بعضاً لمجرد المساحة ، وذلك لأمرين : أولهما أن العبرة في المساحة بالكيف لا بالكم ورب ميل من الأرض خير من ألف ميل . وثانيهما أن هنالك اعتبارات أخرى لا تقل خطراً عن مجرد المساحة مثل موارد الثروة التي تشتمل عليها تلك الأرض وما عمله السكان للارتفاع بتلك الأرض . وهكذا نصل إلى الاعتبار الثاني الهام وهو :

٢ - عدد السكان :

ولا شك في أن عدد السكان عنصر من أهم العناصر التي توزن بها أقدار الدول ، وكثيراً ما نسمع الناس يفخرون بأن عددهم ضخم كبير . . . وليس الوقت ببعيد يوم كنا نسمع صيحة من زعيم إيطالي عظيم ينبيء العالم بأن لديه ثمانية ملايين من الحراب ، معدة مهياة ليوم من الأيام ، فلم يكن أحد يجرؤ بعد هذه الصيحة المدوية أن ينكر أن إيطاليا من الدول الكبيرة .

أجل عدد السكان أمر خطير ، والدول الخمس الأوربية التي سلم الجميع قبل الحرب أنها من الدول الكبرى ، هي في الوقت نفسه أكثر دول أوروبا سكاناً . إذ لا يقل عدد سكان إيطاليا ، وهي أصغرها عن ٤٢ مليوناً من الأنفس . بقطع النظر عما بأيديهم من السيوف والحراب .

ويلي هذه الدول الخمس في السكان بأوروبا بولندة التي بلغ عدد سكانها ٣٥ مليوناً ، ولهذا رأيناها تطمح لأن تعد في جملة الدول الكبرى ، ولكن طلاب الجغرافيا السياسية يعلمون أن ذلك الطموح سابق لأوانه لأسباب كثيرة ، منها أن بولندة دولة حديثة التكوين ، ولم تندمج بعد الاندماج الكافي ، وسكانها يشتملون على عدد كبير من العناصر غير البولندية . فقد كان فيهم بضعة ملايين من اليهود ، وعدد لا يستهان به من الروس ، وبضعة ملايين من الألمان ، وغير هؤلاء من الأجناس .

وإذا نظرنا خارج أوروبا نرى أن البرازيل تضارع فرنسا وإيطاليا في عدد السكان ، ولكن نسبة عالية من سكانها تتألف من المهاجرين الذين لم يندمجوا بعد ، بل أكثرهم لا يعرف لغة البلاد ، ولم يتشرب روحها وتقاليدها . ومع أننا نتوقع أن تصبح البرازيل يوماً في عداد الدول الكبيرة ، فإن هذا اليوم لم يحن بعد .

كذلك الصين لم تكن تعد فيما مضى من الدول الكبرى ، مع أن الشعب الصيني يحتل مساحة كبيرة من الأرض ، ويعيش في وطن غني التربة طيب الهواء ، وافر الماء كثير المعادن والكنوز ؛ والسكان أكثر شعوب الأرض عدداً ؛ إذ يزيدون على ٤٠٠ مليون من الأنفس ، والشعب الصيني عريق في الحضارة المادية والأدبية وطالما أنجب الحكماء والعلماء ، وكان مضرب الأمثال في التفوق الفنى على مدى العصور .

لماذا - إذن - لم تكن الصين من قبل تحسب في عداد

الدول الكبرى ، مع أن اليابان التي اقتبست حضارتها من الصين كانت تعد واحدة من تلك الدول ؟ . أيمكن أن يكون هنالك خطأ في الموازين التي توزن بها الدول ، ولهذا لم تدخل الصين في عداد الدول الكبرى ؟ .

كلا ! ليس هنالك خطأ في المقاييس ، ولم يكن الكتاب السياسيون مخطئين إذ لم يعدوا الصين قبل الحرب الأخيرة من الدول الكبيرة ، وهذا للأسباب الآتية :

السبب الأول : أن الشعب الصيني كانت تعوزه الوحدة السياسية التي تمكنه من أن يعمل في الأوقات العصيبة وهو موحد الرأي متفق الكلمة . كانت كل واحدة من مديريات الصين تتمتع بالاستقلال التام ولم يكن للحكومة المركزية نفوذ عظيم ، ولذلك اتجهت جهود الزعماء في الزمن الحديث إلى تنظيم التعاون بين الولايات الصينية ، وخشيت اليابان نجاح هذه الجهود ، فبادرت بالإغارة على الصين عام ١٩٣١ ثم عام ١٩٣٥ .

السبب الثاني : أن الشعب الصيني تعوزه وحدة الثقافة . فإن في الصين لغات عديدة أشهرها لغة ماندارين ، التي توشك اليوم أن تكون هي اللغة الرسمية للبلاد كلها .

السبب الثالث : أن الحضارة الصينية القديمة لا تكفي في نظر رجال السياسة اليوم ، بل لا بد من مجارة الحضارة الحديثة ، سواء أكانت هذه المجارة خيراً أو شراً .

وكان الأمل قويا ، على الرغم من مما كان يبدو من علامات الانشقاق بين الأحزاب الصينية ، أن الجهاد العنيف الذي احتملته الصين ، والخطوب التي عانتها في هذه الحرب الضروس ، ستخلق في أبنائها شعور الوحدة والتعاون ، وروح القومية المشتركة ، وكثير من الكتاب يرى أن حكومة بكين قد حققت ذلك الأمل . وما يقال عن الصين ينطبق إلى حد بعيد على الهند الكثيرة السكان الغنية الموارد ولكنها إلى جانب هذا قد تنوعت وتعددت فيها اللغات والثقافات واشتملت على إمارات مستقلة أو شبه مستقلة . فإذا أمكن التغلب على هذه العقبات ، وقد أمكن التغلب على أكثرها ، جاز لنا أن نتوقع أن نرى الهند أيضاً في عداد الدول الكبيرة .

وصفوة القول أن عدد السكان عامل خطير في قوة الدولة . وأن الأقطار القليلة السكان لا تستطيع أن تطمح إلى احتلال مركز ممتاز بين الدول ، فهناك دول صغيرة لا يحول بينها وبين بلوغ مرتبة الدول الكبرى سوى قلة السكان ، مع أن أبنائها يضارعون أرقى الشعوب في أي قطر من الأقطار . ففي هولندا مثلاً وسويسره وبلجيكا ودانمارك وتشيكوسلوفاكيا أمم تتمتع بأوفر قسط من التقدم والرقى الثقافي والأدبي ، ولكن حالت قلة عددهم دون بلوغهم مرتبة الدول الكبيرة .

ولا عبرة بما يقال من أن مخترعات جديدة مثل القنبلة الذرية ونحوها ستسوى بين الدول ، فإنها إذا أصبحت ملكاً للجميع زال أثرها كعامل يميز بين الدول .

وهكذا نرى أن صغر المساحة وقلة السكان عائقان لا يستهان بهما في تقدير الدول طبقاً للوازن المقررة أو شبه المقررة لدى الكتاب السياسيين .

والآن أعرض بسرعة للعناصر الباقية من عناصر القوة الدولية ، وسأتناولها باختصار لأنها متصلة ومرتبطة بما تقدم ذكره أشد الارتباط .

٣ — الثقافة :

لا أظن أن أحداً منا يشك في أن الشعب الذي بلغ شأواً كبيراً في العلم والفن ينال بهذا مرتبة عظيمة من التقدير ، ويؤهل نفسه بهذا لمكان محترم بين الشعوب ، والرقى الثقافي يجعل الأمة الصغيرة العدد أعظم خطراً من أمة قد تفوقها في العدد ، ولكنها تقصر عنها في ميادين العلوم والفنون . وقبل الحرب كان العالم ينظر إلى ألمانيا — مثلاً — ويرى أنها دولة أعظم من روسيا لأن الناس كانوا يعدون روسيا — أن خطأ أو صواباً — أقل ثقافة من ألمانيا . كذلك كان لفرنسا دائماً شأن أعظم من إيطاليا ونفوذ أكبر في جميع أنحاء العالم بسبب تفوق فرنسا الثقافية بوجه خاص .

٤ — مستوى المعيشة :

من الأمور التي يجوز أن تخطر المراء كمقياس لتقدم الأمم ، مستوى معيشتها — أي درجة تمتع السكان جميعاً بأسباب الراحة

والرفاهية ، مثل طيب الغذاء ، وكفاية الملبس والسكن ، والعناية الصحية ، ووفرة فرص التعلم والتأديب ، فيكون مقياس عظمة الدول درجة تحررها من الفاقة والمرض والجهل والاجرام .

هذا المقياس يبدو لأول وهلة كأنه المقياس العادل ، ولو أننا اتبعناه في تقديرنا لكأنت أرقى دول العالم دولة مثل زيلنده الجديدة أو دانمارك أو سويسره أو هولنده ، حيث يتمتع السكان بمعيشة أرقى وأمثل مما نجده في جميع الدول الكبرى على الإطلاق .

أما السبب في أن هذا المقياس لا يؤخذ به ، فهو أنه في الحقيقة مقياس لرقى « المجتمع » وليس مقياساً لقوة « الدولة » ولا يكفي ، مع الأسف ، رقى المجتمع وحده لاحتراز ذلك النفوذ العظيم في العالم الذى يؤهل الدولة للمكانة الأولى بين الدول .

٥ - امتلاك المستعمرات :

ولقد يخيل إلينا أن الدول صاحبة المستعمرات هى أكبر دول العالم ، وأن امتلاك أقطار فيما وراء البحار ، أو فيما أمام البحار ، شرط أساسى للتفوق بين الدول . وقد وقعت هذه الفكرة في نفوس كثير من الناس وطالما لعبت بعقول الساسة ، وكانت سبباً في إثارة الحروب والاضطرابات الدولية وقد نادى ألمانيا من قبل بأن لها « حقاً » في حيازة المستعمرات وكذلك طالبت بولنده بمثل هذا وهماهى ذى إيطاليا قد أقحمت نفسها في الحرب العالمية الأولى

والثانية من أجل أطماعها الاستعمارية . وقد ساقها هذه السياسة إلى
التمزق والدمار وكادت أن تقضى القضاء الأخير على الشعب الإيطالي
الممتاز بين شعوب أوروبا بمواهبه الفنية والأدبية .

وعلى الرغم مما وقر في الأذهان من أن المستعمرات سبيل إلى
العظمة أو أنها من مكملات العظمة ، فإنها فكرة خاطئة ، بل هي
في الحقيقة إقرار بالحقارة والضعفة ، لأن الدولة التي تظن أنها لا تعظم
إلا بمستعمرة تحوزها ، تعترف ضمناً بأنها عاجزة عن أن تكون
عظيمة بنفسها وبأبنائها ومواردها .

وأسوق هنا ، دليلاً على خطأ هذه الفكرة أمرين : أولهما أن
هنالك دولاً لا تقتنى مستعمرات ، وكانت مع ذلك معدودة في الدول
الكبرى ، ولا يعارض في هذا أحد ، منها ألمانيا كما كانت قبل الحرب
— بل وقبل العهد النازي نفسه — ومثل امبراطورية النمسا والمجر
قبل عام ١٩١٤ ، والولايات المتحدة في أمريكا الشمالية ليس لها
مستعمرات تستحق الذكر ، وإيطاليا نفسها لم تكن تملك قبل
الاستيلاء على الحبشة سوى بضع مساحات صحراوية قليلة النفع .
وأظن أن جميع العقلاء يسلون بأن الاستيلاء على الحبشة — فترة
من الزمن — لم يزد في عظمة إيطاليا شيئاً .

الأمر الثاني : أن هناك دولاً صغيرة تملك مستعمرات واسعة
الأرجاء ، نخص بالذكر منها هولنده وبلجيكا والبرتغال .
ومع ذلك فإن هذه الدول لم تكبر بهذا ولم تعظم ، ولم تبلغ
بمستعمراتها مرتبة ترفعها عن كونها دولاً صغيرة .

٦ و ٧ — التفوق الاقتصادي والحربي :

إن التفوق في الميدان الاقتصادي ، أى فى إنتاج الغلات الزراعية ، والصناعية ، والتفوق الحربى هما فى الحقيقة أمر واحد ومع التسليم بأن « صفة » المحارب لا يزال لها بعض الشأن فى الحروب الحديثة ، فإن « عدة » المحارب والأدوات الجهنمية التى يحارب بها لها شأن أكبر وأخطر . فلقد انتهى الزمن الذى كان فيه البطل الصنديد يقف منفردا والسيف يلمع فى يمينه والدرع السابغة فى يساره وينادى هل من مبارز ؟ هل من مناجز ؟ ثم يكر على الصفوف فيقتل الألوف ويوزع الحتوف . لكن جاز مثل هذا الأمر فى العصور النابرة فإنه لن يجوز فى عصرنا هذا . وإنما التفوق الحربى اليوم هو فى إنتاج المدافع والطائرات والسفن والدبابات والقنابل المدمرة المخربة ، وسائر العدة الحربية ، التى لا تكاد تقع تحت حصر . وهذه العدة ما هى إلا جزء من الإنتاج الصناعى لكل دولة . ولهذا كان التفوق الاقتصادى والحربى فى الواقع شيئاً واحداً .

ويستند التقدم الاقتصادى إلى أمرين : أولهما خاص بالبلاد ، والثانى خاص بالسكان . فأما البلاد فيقاس تفوقها بوفرة الغلات الزراعية ، ووفرة الوقود اللازم لتوفير القوة ووفرة المعادن والمواد الأولية اللازمة للصناعة ، ويوشك ألا يكون بين الدول الكبرى التى ذكرناها من تتوافر لديها جميع عناصر الإنتاج الاقتصادى ؛ فألمانيا قليلة البترول والنيكل والنحاس ، ومواردها فى الحديد

لا تكفيها ، وفرنسا خالية تماماً من البترول ، وإيطاليا واليابان فقيرتان في المعادن والوقود ، وبريطانيا قليلة المواد الغذائية والبترول والولايات المتحدة وروسيا أوفر الدول غلات ، ولكنها فقيرة في المطاط وفي غلات المناطق الحارة . غير أن هذه الدول كلها تشتمل على موارد اقتصادية عظيمة ، رغم افتقارها إلى بعض الغلات .

أما الأمر الثاني العظيم الخطر في الإنتاج فهو مقدرة الشعب على استغلال هذه الموارد ، وعلى تنظيم الصناعة تنظيماً يضمن أكبر وأوفر إنتاج ممكن ، ويكفل للأمة اتساعاً واسعاً في تجارتها العالمية ، وازدياد ثروتها تبعاً لذلك .

ولعل هذا المقياس ، أعنى التفوق في الميدان الاقتصادي ، هو المقياس الذي اتبعه الناس — عن عمد أو غير عمد — في تقديم الدول بعضها على بعض ، لأنه يعبر عن أمرين هما الركنان الخطيران في كيان كل دولة : وهما غنى الأرض ومواردها من جهة ، وكفاية الشعب ومقدرته على استغلال تلك الموارد من جهة أخرى .

وهكذا أوصلنا البحث والتنقيب إلى المقياس الذي تقاس به أقدار الدول ، وإلى تفسير لعله قريب من الصواب ، لتلك الظاهرة السياسية الكبرى في العالم ، وهي انقسام الدول إلى دول كبيرة ، ودول غير كبيرة ، وقد يجوز لنا — والحال كما وصفنا — أن نقترح مقياساً حسابياً لتفوق الدول على النحو الذي نتبعه في ترتيب

التلاميذ درجات في جداول الامتحان — ومن الممكن أن يكون هذا المقياس على النحو الآتي :

إن كل دولة تتألف من ثلاثة عناصر :

(١) مساحة من الأرض .

(٢) عدد من الناس .

(٣) ما يعمل به الناس في تلك الأرض — وإني أقترح أن تمنح الدرجات بحيث يكون للأرض (أعنى مساحتها وخصوبتها ومعادنها الخ) ٢٥ درجة — وللسكان (عددهم واستعدادهم وثقافتهم الخ) ٢٥ درجة — ولنشاط السكان وحسن استغلالهم لأرضهم ٥٠ درجة . ولا شك أنه في وسع القارئ اللبيب أن يمنح كلا من الدول الكبرى درجات على هذه الصورة — ثم يرتبها بحسب تقدير الدرجات إلى برنجي وايكنجي وهلم جرا . . . وبعد فإن هذه الحرب العالمية الثانية قد بدلت من أوضاع الدول الكبيرة وغيرت ، وحذفت من عداد هذه الدول ثلاثاً سحقتها الحرب سحقاً ومحقتها محققاً ، ألا وهي اليابان وألمانيا وإيطاليا . ومع أن المسرح الدولي هو سطح الأرض الذي لم يتغير كثيراً فإن ثلاثة من كبار الممثلين قد انتزعت عنهم الأدوار الفخمة الضخمة التي كانوا « يلعبونها » وقيل لهم إنكم منذ اليوم ستلزمون لعب الأدوار الثانوية ، ولن يكون لهم في المسرح سوى مكان قافه ضئيل .

وهكذا خرج ثلاثة — ولو مؤقتا — من أكابر اللاعبين
وبقى أربعة . ولكن ليس هذا كل ما طرأ على المسرح من التبديل
والتحويل ، والتربيع والتدوير . بل إننا رأينا في الحقيقة
مسرحاً جديداً له مظاهر تبعث على إيمان التفكير وانعام النظر .
فقد أصبحنا يقال لنا أحياناً إن كبار الممثلين خمسة ، وطوراً
يقال لنا إنهم ثلاثة . فيقال اجتمع الثلاثة الكبار تارة ،
 واجتمع الخمسة الأقطاب تارة أخرى . فأما الثلاثة الكبار فهم
أمريكا وبريطانيا وروسيا (على الترتيب الأبجدي) وأما إذا كانوا
خمسـة فإن هذا يكون بإضافة كل من فرنسا والصين .

وهناك أدلة كثيرة تثبت أن هذه الفوضى قد حيرت كثيراً
من العقول وأشاعت بين الناس العجب والذهول . وأخذ الناس
يتساءلون ما بال هؤلاء الكبراء يكونون خمسة اليوم ، ثم يصبحون
ثلاثة غدا ؟

لقد اعترف ميثاق الأمم المتحدة بمبدأ الكبراء الخمسة ،
وجعل لهم مكانهم الدائم في مجلس الأمن كما كان للكبراء السبعة
مكان دائم في مجلس العصبة . والميثاق هو دستور الأمم الجديد ،
ونبراسها الذي يضيء لها السبيل إلى مستقل باهر يحف به الأمن
والرخاء والعدل والارتقاء . فلماذا إذن كل هذا التخليط والاضطراب ؟
ولماذا يكون الكبراء أحياناً خمسة وأحياناً ثلاثة ، مع أن هذا
الاضطراب لم يكن له وجود قبل هذه الحرب يوم كان عدد الكبراء
سبعة باعتراف الجميع وإقرار الخلق طراً ؟

إن السبب في هذا أن مسرح السياسة قبل الحرب كانت تمثل فيه رواية واحدة . أما اليوم فإن في المسرح الدولي روايتين تتعاقبان في التمثيل : الأولى رواية عظيمة الخطر وليس فيها من كبار الأبطال إلا ثلاثة ، والثانية أقل خطراً وقد سمح فيها بأن يكون كبار الممثلين خمسة . فإذا ذكرت هذا أيها القارئ أدركت الفرق بين الحالين ، ووضح الصبح لدى العينين .

ولقد تجرأ أحد الساسة الإنجليز — وهو الأستاذ هارولد لاسكي — فوصف بريطانيا بأنها اليوم دولة في المرتبة الثانية فلامه الناس جميعاً — لأن مثل هذا الأمر لا ينبغي أن يقال — مع أننا لو أعطيناها درجات في المواد السابقة التي ذكرتها من قبل لما كان من الصعب أن تنجح وأن يكون ترتيبها متقدماً . . .

كذلك يهمس بعض الناس بأن حشر الصين في زمرة الدول الكبيرة أمر أقل ما يقال فيه أنه سابق لأوانه . وإني أستغفر الله لهؤلاء الناس ولما يهمسون به . فأن الصين أمة عريقة في الحضارة والمدنية وقد اضطلعت في هذه الحرب بعبء ثقیل وتستحق كل تقدير وتبجيل .

وهذا الاضطراب في أقوال الكتاب ورجال السياسة ، ما هو إلا صورة لحالة الاضطراب السائدة في وقتنا هذا . ولذلك نرى السياسة لا تعرف لنفسها خطة ثابتة ومنهجاً واضحاً في التقدير والتمييز . وهذا بعض ما أعقبته هذه الحرب الضروس من اختلال

القيم واضطراب الموازين فبات من الصعب علينا اليوم أن نقطع برأى فيما آلت إليه الحال في المسرح الدولى وفى أقدار الممثلين فيه . ولا بد من الانتظار قليلا حتى تستقر شئون هذا الكوكب المعذب ويثوب الرشد إلى عقول قاداته وأولى الأمر فيه .

وبعد ، فإن دول العالم ، إلى جانب تقسيمها إلى كبير وصغير ، تنقسم أيضاً إلى دول تملك المستعمرات ، وأخرى لم ترد أو لم يُرد لها أن تكون من ذوات المستعمرات . وليست الدول الكبيرة دائماً من النوع الأول . كما أن الدول الصغيرة ليست كلها من النوع الثانى

فقد كانت ألمانيا قبل الحرب من الدول الكبيرة — وقد حرم عليها حيازة المستعمرات — وكان يحز فى نفس السياسة من النازيين أن تكون دولة صغيرة مثل البرتغال ذات مستعمرات واسعة مترامية الأطراف .

وسنحاول فى الفصول التالية دراسة ظاهرة الاستعمار فى بعض مظاهره فى مختلف الأقطار .

الاستعمار قديماً وحديثاً

لعل الحركة الاستعمارية الحديثة التي أثرت في النظام السياسي للعالم الذي نعيش فيه اليوم أبلغ التأثير ، هي أحق الظواهر السياسية بأن ننعم فيها النظر ، وأن ندرسها دراسة عميقة . فليس في ميدان السياسة العالمية اليوم حقيقة أظهر أو أبرز من ظاهرة الاستعمار ، التي بات من نتائجها أن قسمت الأرض إلى ثلاثة أقسام : بلاد مالكة — وبلاد مملوكة — وبلاد « مستقلة » ليست بمالكة ولا مملوكة . وربما أضيف إليها نوع رابع ليس بمالك ولا مملوك ولكنه في حالة وسط وهو على الأرجح من الأمثلة القليلة التي يمكن أن يقال فيها « شر الأمور الوسط » .

معنى الاستعمار

وجدير بنا — ونحن في سبيل دراسة هذه الظاهرة دراسة دقيقة — أن نبدأ بتعريفها وتحديد معناها . ولقد يخطر لأحدنا أن يبدأ دراسته لمعنى الاستعمار بمراجعة المعاجم أو كتب اللغة أو دوائر المعارف . ولكن الباحث في هذه الأسفار لن يؤوب حتى يخفى حنين . فان في لسان العرب مثلاً عشر صفحات في مادة « عمر » ولم يرد فيها حتى كلمة الاستعمار ، ودائرة المعارف البريطانية خالية من مادة امبريا لزم كمادة مستقلة ، ومن أية مادة أخرى في هذا المعنى . وقد اشتقت الكلمة العربية في شيء من التفاؤل من مادة « العمر » .

و « العمران » . ولم يدر بخلد الواضعين لهذه الكلمة أن سيجر هذا العمران المزعوم إلى شر أنواع التخريب والتدمير .
وبديهي أن من العبث أن نرجع إلى أسفار اللغة في تعريف معنى الاستعمار لأن هذا لفظ اصطلاحى بحت ، وإن لم يكن من الألفاظ التى أصبح معناها مقررأ محددأ لدى جميع الكتاب . وقد استخدم هذا اللفظ بعض الكتاب فى معنى يختلف عما أراده الآخر وعلى سبيل المثال أسوق هنا مثلاً مقتبساً من أحد الكتاب المتعصبين للاستعمار والمستعمرين ولا بد لى أن أورد هذا النص باللغة الأصلية لفائدة الذين يعرفون الانجليزية من القراء ، قبل أن أحاول ترجمته للعربية :

“ Imperialism is Nationalism transfigured by a light from the aspirations of universal humanity ”

ومن الممكن أن نحاول ترجمته إلى العربية فيما يلى :

« الحركة الاستعمارية هى الحركة الوطنية تحولت صورتها بتأثير ضياء من أمانى البشرية العالمية . . »

وعلى الرغم من أن هذه العبارة ليست واضحة المعنى تماماً فإن من الممكن أن يستخلص منها القارىء بعض المعانى التى تدور بخلد فلاسفة الاستعمار الذين أخذوا على عاتقهم تفسير مظاهره وتبرير سياسته أمام الناس .

وإذا أراد القارىء أن يطالع إشارة أخرى إلى الاستعمار من

كاتب فرنسي لبق رشيق فإني أسوق إليه العبارة الآتية المقتبسة من
من كتاب منتسكيو المشهور « روح القوانين » :

“ Si j'avais à soutenir le droit que nous avons eu
de rendre les negres esclaves, voici ce que je dirais :

Les peuples d'Europe ayant exterminé ceux de
l'Amerique, ils ont du mettre en esclavage ceux de
l'Afrique, pour s'en servir à défricher tant de terres.

... Ceux dont il s'agit sont noirs depuis les pieds
jusqu'à la tête; et ils ont le nez si écrasé qu'il est
presque impossible de les plaindre.

Or ne peut se mettre dans l'idée que Dieu, qui est
un être très sage, ait mis une âme, surtout une âme
bonne, dans un corps tout noir ”.

De l'Esprit des lois, Livre XV, Chap. V.

« إذا طلب مني أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزوج
عبيداً ، فإني أقول : إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان
أمريكا الأصليين ، لم تبتدأ من أن تستعبد شعوب أفريقية
لكي تستخدمها في استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة .
والشعوب المذكورة ما هي إلا جماعات سوداء البشرية من أخمص
القدم إلى قمة الرأس ، وأنفها أفطس فطساً شديداً ، بحيث
يكاد أن يكون من المستحيل أن ترقى لها . ولا يمكن للمرء أن
يتصور أن الله سبحانه وتعالى — وهو ذو الحكمة السامية —
قد وضع روحاً — وعلى الأخص روحاً طيبة — في داخل جسم
حالك السواد »

وفي وسعنا أن نذكر أمثلة أخرى لتعريف الاسعمار . ولكن
القارىء سيجد هذه الأمثلة مختلفة اختلاف نزعات الكتاب ،
وميلهم إلى تمجيده وتعظيمه ، أو للسخرية منه . وهى لذلك قليلة
الفائدة من الوجهة العلمية الخالصة . ومن المفيد ألا نمر بعبارة
منتسكيو هذه دون أن نشير إلى أنها ليست مبينة على مجردة
السخرية — فإن الإشارة إلى أن الشعوب السوداء أو الحمراء
لا روح لها قد كانت مظهرآ من مظاهر الاستعمار الأوربى الحديث
فى أوائل عهده . ورجال الدين أنفسهم لم يتورعوا عن مثل هذه
النزعات . وقد كان قادة الدين فى مراحل الاستعمار الأولى بأمريكا
الشمالية ، يشيرون إلى الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان ،
وكانوا يأمرؤن بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل . وكان من هذه
الوسائل أن تنشر بينهم الأمراض الجديدة التى ليس للأمريكيين
الأصليين تلك المناعة منها التى اكتسبتها شعوب العالم القديم .
ومن أهمها مرض الحصباء — فكانوا يوصون بأن يمكن الهنود
الأمريكيون من الاستيلاء على الأغذية (البطاطين) التى كان
يتغذى بها المصابون بالحصباء . وكانوا يرون أن هذا الإجراء
نما يتفق تماماً مع الدين .

وصفوة القول أننا فى حاجة لأن نعرف لفظ الاستعمار تعريفاً
سهلاً واضحاً ، تيسيراً لدراستنا هذه ، فالاستعمار المقصود هنا هو
« العمل ، أو مجموعة الأعمال ، التى من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ

بواسطة دولة ، أو جماعة منظمة من الناس ، على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم ، أو على سكان تلك الأرض ، أو على الأرض والسكان في آن واحد . وهذا التعريف كاف فيما يخيل لي لأن يشمل جميع أنواع الاستعمار ، قديمه وحديثه . وهو تعريف طويل ولكن ليس من السهل أن نأتي بتعريف واضح وموجز اظاهرة بعيدة عن البساطة والسهولة . ولا بد لنا ، لكي نظهر ما اشتمل عليه هذا التعريف من المعاني ، أن تتبعه بعض ملاحظات تفسره وتبرز منه بعض النواحي التي تبدو واضحة لأول وهلة وضوحاً كافياً .

١ — فالأعمال المشار إليها قد يكون منها استخدام القوة الحربية ، وهذا هو ما يحدث غالباً . وقد تحدث السيطرة على أرض بشرائها ، كما اشترت الولايات المتحدة أسكاً من روسيا ، أو تحدث بمزيج من استخدام القوة والشراء ، كما اشترت جزر الفلبين من أسبانيا وقد تحدث السيطرة برضا الدولة المختصة ، كما حصلت بريطانيا على جزيرة قبرص من الدولة العثمانية في مقابل خدمات خاصة .

٢ — وعبارة السيطرة أو بسط النفوذ ، تفيد أنه ليس من الضروري أن يكون الاستعمار سافراً بحيث تتسلط الدولة على جميع مرافق البلاد ، بل يكفي أن يكون لها نفوذ سياسي تنفرد به دون سائر الدول وتقيده حرية البلاد التي يسط عليها ذلك النفوذ .

وعلى سبيل المثال نذكر أن إيطاليا كان لها نفوذ سياسى على ألبانيا لغاية شهر ابريل سنة ١٩٣٩ ثم تسلطت عليها بعد ذلك تسلطاً تاماً ، فانقلبت الحال من استعمار خفيف إلى استعمار ثقيل .

٣ - والنص على الدولة أو جماعة منظمة من الناس ، أريد به أن يشمل الاستعمار تلك الشركات التى تألفت فى العصور الحديثة مثل شركة الهند الشرقية وشركة أفريقية الشرقية ، وقامت بأعمال استعمارية عنيفة وتسلطت على مرافق البلاد الأجنبية دون أن يكون للدولة شأن فى ذلك سوى الإذن بتأليف شركة .

٤ - والإشارة إلى أن التسلط قد يقع على الأرض فقط ، فهذا هو ما يحدث فى بلاد خالية من السكان أو فى حكم الخالية من السكان - والمستعمرات اليونانية القديمة خير مثال لهذا النوع . ومن الأمثلة الحديثة استيلاء البريطانيين على جزيرة سانت هيلانة مثلاً . وربما أمكننا بشئ من التجاوز أن نعد استيلاء الأوروبيين على أمريكا الشمالية من هذا النوع على الرغم من وجود عدد قليل من السكان الأصليين .

أما أن السيطرة قد تقع على السكان دون الأرض ، فذلك يكون بترك الأرض ومرافقها لسكانها الأصليين فلا تحتصب منهم ولا يكلفون الجلاء عنها . ولايضاح هذه الناحية نذكر مثلاً وهو شرق أفريقية (مستعمرة كينيا مثلاً) حيث يتسلط المستعمرون على الأرض والسكان . وأما غرب أفريقية ، فقد سمح للسكان

الأصليين بالاحتفاظ بأرضهم . والسبب في ذلك أن أرض شرق
أفريقية المرتفعة تصلح لسكنى الأوربيين ، وأرض أفريقية الغربية
منخفضة شديدة الحرارة لا تلائم سكنى المستعمرين .

٥ - وقد يبدو للقارىء أن يتساءل : هل يدخل في هذا
التعريف النفوذ الاقتصادي أو الثقافي ؟ وهل من الاستعمار مثلاً
أن تنشئ دولة أو رعاياها المعاهد العلمية أو ينشئوا شركات
اقتصادية ؟ وهذا أمر قد تختلف فيه الآراء . وقد تبلغ النعرة
الوطنية ببعض الناس حد التطرف ، فيتوهمون أن قيام رعايا من
بلجيكا مثلاً بإنشاء شركة الترام أو شركة هليوبوليس ، أو دخول
رأس المال الأجنبي في أية صورة من الصور هو ضرب من الاستعمار
حتى لو أدى إلى استخدام آلاف من الأيدي العاملة الوطنية .
والصواب في هذا وفي أمثاله أن المشروعات الثقافية والاقتصادية
ليست من الاستعمار في شيء ، ما لم تكن سبباً أو نتيجة لنفوذ
سياسي . وقد استخدم رأس المال الأجنبي في إنشاء السكك الحديدية
في الولايات المتحدة وفي غيرها من الأقطار الأمريكية ، ومع ذلك
لم يترتب عليه أى نفوذ سياسي ، كما أنه لم يكن نتيجة لأى تسلط
سياسي أجنبي ، وفرنسا كثيراً ما تنشئ المعاهد الثقافية في بعض
البلاد الأمريكية دون أن يكون لهذا أى مظهر من مظاهر الاستعمار .
أما إذا أرادت فرنسا أن تجعل من وجود بعثات علمية أو دينية
خريجة تتمرد بها لبسط سلطانها السياسي في قطر من الأقطار أو

لاحتلاله احتلالا عسكريا ، فهذا بالطبع عمل استعماري ، ومثله كمثل الخير الذي يراد به شر . فالبعثات العلمية والمشروعات الاقتصادية ليست في ذاتها عملا استعماريًا ولكن التدخل في شئون القطر والتسلط على حكومته هو العمل الاستعماري . ومن الواجب أن نفرق بين ظاهرة الاستعمار وبين الذرائع التي يتذرع بها للقيام بعمل استعماري . وسيرى القارىء فيما يلي أن دول الاستعمار لن تعوزها الذرائع ، للقيام بأعمالها الاستعمارية ، بل إنها كثيرا ما تخلق هذه الذرائع وتوجدتها من العدم .

الاستعمار القديم والحديث :

من الواضح أن الاستعمار في حدود التعريف الذي شرحناه ليس بالشئ الجديد . وسواء أكان الغرض من الاستعمار احتلال أقطار جديدة خالية أو شبه خالية من السكان أو كان الغرض منه توسيع رقعة الدولة بالاستيلاء على أقطار عامرة بالسكان فإننا نجد أمثلة لهذين النوعين في العهود البشرية القديمة . فقد أسس الفونيقيون مستعمرات مختلفة في البحر الأبيض المتوسط ، وأنشأ اليونان القدماء مستعمرات عدة في سواحل الأناضول والبحر الأسود ومضيق البسفور وفي صقلية وعلى سواحل فرنسا وأسبانيا وهي تشبه في كثير من الوجوه استعمار البريطانيين لأمريكا الشمالية (الولايات المتحدة وكندا) ولاستراليا وزيلندة الجديدة .

وقد شهد العالم القديم، كما ذكرنا من قبل، إنشاء دول ضخمة مثل امبراطورية بابل وإيران وآشور، ومثل الدولة الرومانية العظيمة . وفي العصور الوسطى قامت الدولة العربية واتسعت رقعتها حتى شملت شطراً كبيراً من العالم القديم . كما أنشأ المغول دولاً عدة في شرق آسيا وغربها — بل لقد بلغ نفوذهم قلب القارة الأوربية نفسها .

غير أن هنالك فروقاً جوهرية بين الاستعمار القديم والحديث . وسنرى فيما يلي أن الطراز القديم ليس مقصوراً على العصور التاريخية القديمة والوسطى — بل أن هذا الطراز ينطبق أيضاً في العصور الحديثة على الدولة الضخمة القصيرة العمر التي أسسها نابليون بونابرت . وسنحاول فيما يلي إظهار تلك الفروق الأساسية بين الطرازين القديم والحديث .

١ — لم يكن الاستعمار في العهود القديمة عملاً تقوم به الدول ذات الحضارة المتقدمة وحدها بل كثيراً ما كان المستعمرون قبائل أو جماعات أقرب إلى الوحشية ، ولكن لهم من القوة الحربية والنظام ما مكنهم من السيطرة على أقاليم سكانها ذوو حضارة ممتازة . أما الدول الاستعمارية اليوم فإنها بوجه عام دول قد ضربت في الحضارة بسهم ، وقد وجهت أعمالها الاستعمارية نحو بلاد في حالة ضعف سياسى أو تأخر اقتصادى وثقافى . وليس في العالم اليوم شعوب وحشية يخشى من غاراتها الاستعمارية كما حدث من إغارات المغول على دولة الصين والدولة الرومانية وعلى الدولة العربية .

والعدوان الاستعماري اليوم عمل انفردت به الأقطار المتقدمة التي بلغت الشأوا الأعلى في التطور السياسي والمالي والحربي .

٢ — أن التوسع الاستعماري الحديث قد شمل العالم كله ، ولم تعد المسافات الشاسعة ولا المحيطات الواسعة عائقاً يحول دون امتداد مخالب الاستعمار إلى قلب القارات وإلى الأقطار الواقعة وراء البحار . ولم يبق ركن من سطح الأرض في مأمن من أن تناله يد الاستعمار . والفضل في هذا يرجع إلى الكشف عن جميع الأقطار المجهولة وإلى سهولة الانتقال وسرعته بواسطة المخترعات الحديثة .

٣ — هذا وقد ترتب على هذا التوسع في الميدان الاستعماري أن أصبحت الدول أو الامبراطوريات الحديثة عبارة عن أقطار مبعثرة في أركان الأرض ، لا كتلة مندمجة ، كما كانت الدول القديمة فأصبحنا نرى أن دولة مثل البرتغال تسيطر على مساحات واسعة في إفريقية الشرقية والغربية وعلى مساحات أقل منها في الهند وفي جزر الهند الشرقية . ومثل هذا يقال عن هولنده ، التي كانت تسيطر على مساحات عظيمة في آسيا وأمريكا . وهذه الظاهرة أكثر وضوحاً بالطبع في الدول الاستعمارية الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا . أما الامبراطوريات القديمة فكانت تسيطر على مساحة كبيرة من سطح الأرض ولكنها تشتمل على أجزاء متجاورة متلاصقة . والدولة الرومانية نفسها على الرغم من اشتغالها على أقاليم موزعة

إلى التوسع والتسلط على أقطار جديدة ، اللهم إلا إذا استثنينا أحوالاً قليلة كان فيها بعض الالتجاء إلى ذكر مبررات للغزو ، مثل الحروب الصليبية والدينية . أما فيما عدا ذلك فقد كان العاهل العظيم يرى من حقه أن يغزو ويستولى ، استجابة لباعث لا حاجة به إلى تفسيره أو تبريره ، أما دعاة الاستعمار اليوم فلهم مذاهب وأقوال كثيرة :

١ — من الجائز أننا إذا فتشنا ضمائر الاستعمار بين اليوم ، لم نجد أسباباً أو دوافع حقيقية تدعوهم إلى انتهاج الخطط الاستعمارية ، وإنما هو مجرد غريزة الاستيلاء وشهوة السيطرة تحرك الدول اليوم كما كانت تحرك الملوك القدماء . وهناك عدد من الكتاب قد ذكروا مبررات للاستعمار لا تختلف كثيراً عما يذكره عاهل قديم مثل جنكينز خان — لو أنه أتيج له أن يفسر أو يبرر سياسته الاستعمارية . فيقول اللورد كرزن مثلاً : « إن الهند هي محور عظمتنا ومقياس مجدنا أو إخفاقنا . ولئن فقدنا الهند ل يكون هذا إيذاناً بغروب شمسنا » . ويقول الكاتب الفرنسي لروابوليو : « إن فرنسا لا بد لها من أن تكون دولة أفريقية عظيمة ، وإلا فسرعان ما تغدو دولة أوربية من الدرجة الثانية . ولن يكون لها في العالم شأن أعظم كثيراً مما لدولة مثل اليونان ورومانيا .

فأصحاب هذا المذهب يرون أن الدولة لن يكون لها شأن ، أخطر إلا بالتوسع والاستعمار . ومثل هذا المذهب هو الذي

اعتنقه النازيون بعد ذلك وابتكروا له كلمة جديدة فقالوا أن شعبهم لا بد له من شيء اسمه Lebensraum أى مجال حيوى يشتمل على بلاده وبلاد غيره . وذهب الغلاة منهم إلى هذا المجال الحيوى ذو مرونة عظيمة بحيث يجوز أن يشمل العالم كله . « اليوم لنا ألمانيا . وغداً العالم كله ! » .

٢ — المذهب الاستعماري الثاني — وله بعض الارتباط بهذا المذهب الأول — ينادى بأن الدولة صاحبة الشأن لها « رسالة عالمية مقدسة » لا بد لها أن تنشرها وتبثها بين الشعوب ، ألا وهى رسالة المدنية والحضارة ، رسالة تقضى عليها بأن تبذل وتضحى لرفع مستوى الشعوب والأمم . وليس الفتح والغزو غاية بل وسيلة لإعلاء البشرية والسمو بها إلى آفاق العزة والكرامة والحرية

وقد وصف أصحاب هذا المذهب تلك الرسالة التى تؤديها الشعوب الأوربية بأنها « عبء يحمله الجنس الأبيض The White Man's Burden وهو عبء ثقيل فادح — ولكنه محجب إلى تلك النفوس الاستعمارية التى جعلت هدفها رفع شأن بنى الإنسان فى كل مكان ! .

ونحن الذين نشاهد أعمال الاستعماريين عن كسب قد نسخر من هذه الأقوال أو نراها ضرباً من الهذيان أو من النفاق ، ولكن هنالك من غير شك أشخاص يدلون بهذه الأقوال عن عقيدة وإيمان ، ويتبعهم عدد غير قليل من الناس فى كل دولة

استعمارية . وقد يكون عدد هؤلاء الناس كبيراً في بعض البلاد صاحبة المستعمرات ، فتضطر إلى أن تلتطف من حدة سياستها الاستعمارية .

٣ — بعد هذا الطراز الاستعماري — الذي ينشد ما يتوهمه المثل الأعلى — يجيء طراز آخر من نوع لا شك أنه شرير ، وهو المذهب الذي ينادى بضرورة الاستيلاء على أقطار جديدة لسكنى رعاياه وإقامتهم ، مع أن في تلك الأقطار سكانها الأصليين الذين استوطنوها منذ قرون عدة . إن الحكومات الاستعمارية التي من هذا الطراز تنادى بأن شعبها آخذ في الازدياد ، وأنه لا بد له من أراض جديدة يعيش فيها ، وأن جميع اعتبارات العدل والإنسانية لا قيمة لها أمام هذه الحاجة الملحة في نظرهم .

ومن الغريب أن كثيراً من البسطاء القليل العلم والتفكير في بلاد عدة قد انخدعوا بهذه الدعاية وتوهموا أن مثل هذا التوسع أمر لا مفر منه ، وأن الدول التي تنشده لها العذر كله أو بعضه . وقد كثر التضليل في هذا الموضوع حتى بات من الصعب على الناس أن يدركوا ما انطوت عليه تلك السياسة من الكذب والرياء .

وحينما نسمع الدعاة الفاشيين يتصايحون بأن الشعب الإيطالي لا بد له من المستعمرات لفسح المجال لسكانه المتزادين — يتوهم بعضنا ، بل كثير منا ، أنهم على صواب فيما يزعمون . ولكي يظهر بهتان هذه الدعاية يجب علينا أن نذكر :

أولاً - أن هنالك شعوباً أخرى قد ضاقت بها بلادها . فوجدوا في العالم الجديد ميداناً للهجرة والاستقرار . ذلك ما فعله الشعب الإيرلندي والشعوب الاسكندنافية وشعوب البلقان وسوريا بل الشعب الإيطالي نفسه . فقد استطاعت الملايين من أبناء هذه الشعوب النزوح إلى القارة الأمريكية وغيرها حيث يعيشون اليوم في الجمهوريات الجديدة ويعملون فيها كعنصر نافع من رعاياها .

ثانياً - أن الدعاية الفاشية قد اشتدت في طلب المستعمرات في الوقت الذي أخذ فيه نمو السكان يتناقص في إيطاليا نفسها بدرجة واضحة ملموسة .

فليس طلب المستعمرات إذن نتيجة لازدحام السكان في إيطاليا ، لأن الهجرة إلى أمريكا قد خففت من ذلك الازدحام تخفيفاً واضحاً . ولكن الذي تبغيه الحكومة الاستعمارية هو أن يهاجر رعاياها إلى أقطار تملكها وتسيطر عليها ، مع أنها قد لا تتسع إلا لعدد محدود جداً من المهاجرين ، كما حدث فعلاً في ليبيا وبلاد الحبشة وأرتريا . فإن العنصر الإيطالي المهاجر إلى مختلف المستعمرات الإفريقية تافه جداً إذا قورن بالجاليات الإيطالية الهائلة في الولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين وغيرها من بلاد العالم الجديد .

فالمطالبة بمستعمرات للسكان المتزايدين لم يكن في أي وقت من الأوقات سوى ضرب من النفاق السياسي وستار زائف للمطامع الاستعمارية التي تلتهمس المبررات من أي نوع كانت .

٤ — الطراز الربع من الاستعمار هو الذى نعرفه نحن سكان مصر خير المعرفة — لأننا قد اضطررنا لأن نسمع صوته يتردد من حين لآخر ، ذلك هو الطراز الحربى أو الدفاعى . وأصحاب هذا المذهب يرون أنه لا بد لهم من التسلط على قطر أو عدد من الأقطار لضرورات عسكرية ، أو لأن الموقع الحربى لهذا الإقليم أو ذاك هو من الخطر ، بحيث لا بد لهم أن يضمنوا سلامته من كل عدوان . وهذه الأقاليم ذات الأهمية العسكرية تنقسم إلى أنواع ، فمنها الأقطار المتاخمة لحدود الدواة والى ترى أنها لازمة للدفاع عن أرضها ، مثل التيرول الجنوبى ، الذى اقتطعته إيطاليا من بلاد النمسا لى تحمى أرضها وتدافع عنها من الناحية الشمالية ، والأراضى الفنلندية التى استولت عليها روسيا لتحسين دفاعها عن الأقاليم الشمالية الغربية للاتحاد السوفياتى ، ومنها الجهات التى تعترض خطوط المواصلات الإمبراطورية — مثل جبل طارق ومالطة وقناة السويس وعدن وسنغافورة بالنسبة إلى الانجليز ، وبنا بالنسبة للولايات المتحدة . فهذه الجهات كلها فى نظر الدول الاستعمارية لا بد من بسط النفوذ عليها لضمان سلامة المواصلات فى وقت الحرب . وعلى الرغم من أن هذه المواصلات قد تعطلت تماما فى أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية فإن هؤلاء الاستعماريين لا يزالون متمسكين بهذه الحجة .

وأخيراً هنالك أقطار لاعلاقة لها بطرق المواصلات — ولكنها يخشى عليها إذا وقعت في أيدي معادية أن تهدد تلك المواصلات ، مثل جزيرة قبرص وبعض البلاد الواقعة على الخليج الفارسي . فهذه كلها بعيدة عن الطرق البحرية ، ولكن التسلط عليها « ضروري » لكي لا تقع في أيدي أخرى معادية .

هـ — الطراز الخامس والأخير من الاستعمار هو الذي أطلق عليه أسم الاستعمار الاقتصادي ، أي طلب المستعمرات وحياتها ، لكي تكون ميداناً لكسب المال وجمعه بمختلف الطرق بواسطة شركات رأسمالية ، وكثير من الكتاب يرى أن هذه الصبغة النفعية هي الغالبة على الحركة الاستعمارية الحديثة ، وأن رجال المال هم بوجه خاص الذين دفعوا الدول نحو التوسع الحديث ، وهم السبب الأول في ذلك التسابق والتكالب على الاستعمار الذي شهدناه في السبعين عاماً الماضية .

إن هؤلاء الرجال لهم بالطبع نفوذ كبير في الدولة ، وهم لا يتورعون عن استخدام هذا النفوذ لجمع الثروة وجني الأرباح الطائلة . والمشاريع التي يمارسونها إما تجارية ، أي أنهم يجعلون من المستعمرات ميداناً لتصرف البضائع والسلع ، أو زراعية بإنشاء مزارع واسعة لغلات الأقاليم الحارة مثل المطاط والقطن ، أو معدنية للبحث عن الثروة المعدنية واستغلالها .

هذه هي المذاهب الاستعمارية الرئيسية — التي حاول دعاة الاستعمار أن يعبروا عنها ويشرحوها ويدعوا لها ويدافعوا عنها .

تطبيقات الاستعمار :

حاول الكاتب الشهير نورمان إنجل أن يثبت في غير واحد من كتبه أن الاستعمار يكلف الدولة نفقات باهظة ولا تجني من ورائه نفعا يستحق الذكر ، وأن الشعب يمون الاستعمار بما يدفعه من الضرائب وبما يفقده من أرواح أبنائه دون أن يكون للمستعمرات أقل أثر حقيقى في تحسين حالة الشعب المادية والأدبية . وقد أورد أرقاما عدة عما تتكلفه الدولة من الأساطيل الحربية ومن وسائل الدفاع المختلفة ، وأثبت أن ما تجنيه من ربح مستعمراتها لا يتكافأ مع تلك النفقات . وقد تبع نورمان إنجل كتاب كثيرون في رأيه هذا . والراجح أن القائمين بحكم الدول الاستعمارية لا يحاولون أن يجعلوا من الاستعمار مشروعا اقتصاديا يجب أن تنفي إيراداته بنفقاته ، لأن هنالك مطامع استعمارية أخرى غير مجرد الربح المادى . وهذا هو ما يدعونا إلى أن نظن أن الاستعمار شهوة في النفوس تدفع الحكومات إلى اتباع السياسة الاستعمارية سواء أكانت تلك السياسة مؤدية إلى مكسب أو خسارة مادية أو أدبية .

الاستعمار يفسر الحياة الدولية :

كان لبعض الدول في الميدان الاستعماري مزية السبق — لأنها دخلت الميدان قبل سواها — ومن أجل ذلك نرى دولة مثل البرتغال لها مستعمرات عظيمة . ونرى هولندية قد تملك جزر الهند الشرقية كلها تقريباً . ونرى بريطانيا قد استطاعت أن تتسلط على الهند وأقطار أخرى ، قبل أن يتم تكوين ألمانيا وإيطاليا . ثم جاءت الحركة الاستعمارية الحديثة في القرن التاسع عشر ، فاستولت بريطانيا وفرنسا على نصيب الأسد من القارة الإفريقية ، ودخلت ألمانيا وإيطاليا الميدان متأخرتين فلم تفوزا إلا بنصيب قليل نوعاً ما بالنسبة لألمانيا ونصيب تافه بالنسبة لإيطاليا .

واشتد التنافس الاستعماري في العصور الحديثة اشتداداً هائلاً ، وأخذت الدول يكد بعضها البعض ، وتتنافس في بناء الأساطيل واتخاذ الأهبة للحرب . ولئن حاول المؤرخون أن يجدوا أسباباً مختلفة للحرب العالمية الأولى والثانية ، فإن من المستحيل أن ننسى أن من أهم تلك الأسباب التنافس الشديد في الميدان الاستعماري ، وحرص كل دولة كبيرة على أن تنال ما تدعوه « نصيبها » من التوسع والتملك . فقد جعلت السياسة الاستعمارية شهوة التملك أمراً مألوفاً كأنه حق من الحقوق المقررة . واستباححت الدول الاستعمارية في سبيل تحقيق شهوتها أن ترتكب الزور والإثم ، وتحث بالآيمان وتخون العهود ، حتى انحطت الأخلاق الدولية إلى الدرك الأسفل

وسرى السم في العلاقات الدولية . فلم تعد الدول تتورع عن ارتكاب العدوان وعن التفنن في الكذب والرياء .

وصفوة القول أن التكالب على الاستعمار والمستعمرات ، إن لم يكن السبب المباشر في الحربين ، فإنه على الأقل هو السبب في إفساد العلاقات الدولية وفقدان الشعور الإنساني ، وبذلك كان على الأقل سبباً غير مباشر في هذه الحروب العالمية وفي النكبات الهائلة التي أنزلتها بجميع الشعوب .

وقد أخذت الدول الكبيرة صاحبة المستعمرات بعد ذلك تدافع عن قضيتها ، وتزعم أنها ليس لها مطامع استعمارية ولا تسعى وراء مضم . وعند ما انهزم الأعداء في الحرب العالمية الأولى والثانية ، تاركين أرضاً ودياراً كانت في حوزتهم ، رأت الدول المنتصرة ألا تضم تلك الأقطار والديار ضمّاً ، على الطريقة الاستعمارية القديمة ، وقررت أن تجعل منها بلاداً تحت الانتداب في المرة الأولى ، وتحت الوصاية في المرة الثانية .

وسنحاول في الفصل التالي أن نوضح الخصائص الرئيسية لهذين النظامين .

الانذاب والوصاية والاستعمار

انتهينا في الفصل الماضي إلى أن الاستعمار قد أشاع الفوضى والفساد في الشؤون والعلاقات الدولية . فلم يكن في ميدان التكالب الاستعماري متسع لإطفاء جميع الشهوات وإرضاء جميع الرغبات ، وذلك لأن طائفة من الدول كانت لها ميزة السبق في هذا الميدان . فبسطت نفوذها وفرضت سلطانها على كثير من الأقطار في مختلف القارات والأقاليم تجعل منها « مستعمرات تاج » أو « حمايات » أو « مناطق نفوذ » أو « قواعد عسكرية » أو غير ذلك من الأسماء والنعوت التي اشتمل عليها قاموس الاستعمار الحديث . وأصبح لهذه الدول السابقة في الميدان حقوق مكتسبة مقررّة . ولم تترك للدول « اللاحقة » أو المتخلفة سوى لقيمت خشنة جافة لا غناء فيها للنفوس الشرهة ولا رى فيها للظماً الاستعماري الذي يحرق قلوب أصحابه .

كذلك أفسد الاستعمار الأخلاق السياسية وانحط بها إلى الدرك الأسفل من الكذب والرياء وإخلاف العهود والحنث بالآيمان والمواثيق ، حتى كانت دولة محترمة مبعجلة مثل بريطانيا يطلق عليها الكتاب في أوربا اسم ألبيون الحانث *Perfide Albion* . ومع أن بريطانيا قد اشتهرت بإتقان هذه السياسة والنبوغ فيها غير أننا رأينا هذه البذرة الشريرة تنمو وتتكاثر على مدى الزمن ،

حتى رأيناها تنضج في أكمل صورة وأضخمها في سياسة ألمانيا النازية التي جعلت من نقض المعاهدات فناً من الفنون أو علماً من العلوم ، وطبقت فيها هذا في القارة الأوروبية نفسها ، وهي الميدان الوحيد الذي تحامته السياسة الاستعمارية الحديثة . فكان الدول الاستعمارية العظيمة مثل فرنسا وبريطانيا أرادت أن تبتعد عن القارة الأوروبية وأن تنأى بنشاطها الاستعماري إلى « ما وراء البحار » ، لأن المسرح الأوربي واقع تحت سمع العالم وبصره ، وتعرض فيه السياسة الاستعمارية للهوأة الشديدة ، وفي الأقطار البعيدة عن أوربا ميدان أوسع ومجال أرحب تجنباً للنقد واللوم . أما ألمانيا فلم تكن ممن يهمه مثل تلك الاعتبارات ، وقد أغلق باب التوسع وراء البحار . وهي على كل حال لم تفعل أكثر من أن اتبعت في أواسط وشرق أوربا نفس الأساليب والخطط التي سارت عليها الدول الاستعمارية في قارتي آسيا وأفريقية . وكأنها أرادت أن تذهب في التقليد إلى أبعد مدى ، فلم تحاول أن تبتكر أسماء أو مصطلحات جديدة ، بل أطلقت على بلاد تشيكوسلوفاكيا بعد ضمها في مارس سنة ١٩٣٩ اسم « حماية » بوهيميا ومورافيا . ولو منحت ألمانيا فسحة من الوقت لجعلت من بلاد المجر ويوجوسلافيا ورومانيا وبولندا ودانماركة حمايات أخرى . ولكن الدول التي تحرص على التوازن في أوربا لم تطق صبراً على هذه الحال ، فنشأت الحرب العالمية الثانية التي أنزلت بالعالم أشد الويلات وأفظع الكوارث .

وهكذا نرى أن ليس من الإسراف في شيء ما ذهبنا إليه في ختام المقال السابق من أن سياسة الاستعمار لها الفضل الأكبر ، سواء أكانت السبب المباشر أم غير المباشر ، في قيام الحرب العالمية الأولى والثانية — وما جرت به على الشعوب من الويلات .

وكان من الطبيعي أن تعلن الدول المعادية للمحور أنها تشهر حرباً « مقدسة » ، وأنها بعيدة كل البعد عن مظنة التوسع والتملك . وهذا التبرؤ نفسه اعترف صريح بأن سياسة الاستعمار شيء ينبغي التنصل منه كأنه وصمة تأبى تلك الدول أن توصم بها ، وسبب لا تريد أن تلحق بها .

ولكن الحرب الحديثة تنتهي دائماً بهزيمة ساحقة لأحد الفريقين ، ويترك الفريق المهزوم أسلاباً ومخلفات لا بد من التصرف فيها . وكانت السنة القديمة تقضى بتوزيع الأسلاب واقتسام الغنائم بين الدول المنتصرة من غير أدنى تخرج أو تردد . غير أن الدعايات الإنسانية الجليلة التي قامت بها الدول المتحالفة في الحرب الأولى والأمم المتحدة في الحرب الثانية كانت قد ملأت البقاع والأصقاع وانتشرت في الشرق والغرب ، وبلغت من الشدة والحدة مبلغاً لم يحل من الممكن للدول الظافرة أن ترجع إلى سياسة الاستعمار السافر ، ولم يكن بد من أن تعدل عن الخطة القديمة وأن تنهج في التصرف في مخلفات الدول المهزومة نهجاً جديداً . ولذلك سدت مبدء الانتداب في المرة الأولى ومبدء الوصاية في المرة الثانية .

وكان هذا المسلك الجديد اعترافاً ضمناً بأن الاستعمار من الشرور التي لا بد من الابتعاد عنها ، أو هو على الأقل عورة من العورات التي تؤذى العيون ، فلا بد من سترها وتغطيتها بغطاء جديد .

ومع ذلك فإن الدول المنتصرة بعد الحرب العالمية الأولى لم تسلك مسلكاً ينطبق على المنطق السليم . إذ لو كان الاستعمار في نظرها شراً من الشرور ، لبادرت بتطبيق الانتداب على جميع المستعمرات والحمايات والممتلكات . لكنها لم تفعل هذا ، ورأت أن السيطرة على الأراضي القديمة حق مكتسب لا معنى للتخلي عنه ، وأن المبدأ الجديد لن يطبق إلا على الأراضي التي زالت عنها سلطة العدو المهزوم .

وجدير بنا الآن أن ننظر إلى نظام الانتداب هذا وإلى تطبيقه ومظاهره المختلفة حتى نرى إلى أي مدى نستطيع أن نعهده شيئاً جديداً في السياسة الدولية يتمشى مع المبادئ الإنسانية التي تورط الحلفاء في الدعاية لها ، أو أنه لم يكن سوى ثوب جديد تتخذ منه الشهوة الاستعمارية ستراً جديداً أو ستراً رديئاً . لقد كان بين المنادين بفكرة الانتداب والداعين لها جماعات وأفراد ممن يعطفون حقاً على الشعوب الضعيفة ، ويتمنون لها السعادة والرقى والرخاء . ولكن هذه الجماعات لم تكن هي التي قامت بتنفيذ الانتداب وتحويل الفكرة الصالحة إلى سياسة صالحة ، بل قام بتنفيذ الانتداب نفس الدول التي لم يكن مسلكها الاستعماري فوق النقد واللوم الشديد . ولذلك

كان مما يسترعى الانتباه أن ننظر هل تستطيع تلك الأيدي التي لم تكن طاهرة أو نظيفة ، أن تنقلب فجأة إلى أداة كلها طهر ونبيل وإخلاص ؟

تعريف الانتداب :

لم يتناول الانتداب جميع الأقطار التي سلبت من ألمانيا وتركيا والنمسا والمجر وبلغاريا ، فإن حدود الدول قد عدلت في أوروبا بإضافة مساحات من الأرض إلى فرنسا وإيطاليا ورومانيا ويوجوسلافيا وغيرها ، واعتبرت هذه الإجراءات مجرد تعديل في الحدود . فلم تعد إيطاليا منتدبة على إقليم ترنتينو ، ولا فرنسا منتدبة على الألزاس واللورين ، ولا رومانيا على ترانسلفانيا وهلم جرا ، بل أصبحت هذه الأراضي جزءاً متمماً للدول التي ضمت إليها . وأصبح مبدأ الانتداب مقصوراً على الأراضي التي زال عنها حكم تركيا وألمانيا في قارتي آسيا وإفريقية . أي أنه كان مقصوراً على القارات التي كانت تدخل عادة في نطاق التوسع الاستعماري وعلى الأقطار التي كانت مطمع أنظار الدول الاستعمارية .

عرف أحد أقطاب السياسة البريطانية مبدأ الانتداب بأنه :

«A self-imposed limitation by the conquerors on the sovereignty which they obtained over conquered nations»

(هو عبارة عن حد — فرضه الفاتحون على أنفسهم — من حق السيادة التي أحرزوها على الأمم التي قهروها) .

هذا التعريف أدلى به اللورد بالفور في اجتماع لمجلس إدارة عصبة الأمم في شهر مايو سنة ١٩٢٢ وذلك بمناسبة الكلام على فلسطين . ومن المهم أن ننعم النظر في هذا التعريف الذي يلقي شيئاً من الضوء على العقلية الاستعمارية وأسلوبها في التفكير . فنلاحظ في هذا التعريف :

أولاً — أنه يشير إلى الحد من حق السيادة — ولم يقل النزول عن تلك السيادة كأن الانتداب لا يحول دون الاحتفاظ ببعض الحقوق التي ترتبت على الفتح والانتصار على العدو .

ثانياً — وإشارته إلى أن هذا التحديد من السيادة أمر قد فرضه الفاتحون على أنفسهم — تنبئ من غير شك بأنهم أصحاب الشأن في تحديد مدى هذا التحديد .

ثالثاً — أن وصفه للدول المتحالفة بأنها فاتحة غازية — وصف أقل ما يقال فيه أنه ينافي تلك الدعايات الإنسانية التي كثر التحدث بها في الدول الغربية .

رابعاً — أغرب شيء في هذا التعريف أنه يصف الانتصار على دولة تركيا مثلاً — بأنه قهر للأمم العربية — مع أنه لو لا مساعدة العرب لما أمكن غزو سوريا ولبنان وطرد الجيش التركي منها .

فهذا تعريف لمعنى الانتداب يفيدنا في تفهم عقلية السياسة الذين تولوا تطبيق الانتداب ، ولكنه لا ينفعنا في فهم المعنى الذي رمى إليه أولئك الأفراد الذين كان لهم الفضل الأول في سن هذا المبدأ .

وربما كان أقرب إلى تعريف مبدأ الانتداب ما جاء في أول المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم حيث نجد العبارة التالية تحت عنوان نظام الانتداب .

« المستعمرات والأقطار التي زالت عنها — بسبب الحرب — سيادة الدول التي كانت تحكمها من قبل ، والتي يعيش فيها سكان لا يستطيعون أن يقفوا بأنفسهم في الظروف المجهدة القاسية للعالم الحديث ، يجب أن يطبق عليها المبدأ القاضى بأن رفاهية هؤلاء السكان وتقدمهم أمانة مقدسة في أعناق الدول المتقدمة ومن الواجب أن يتضمن هذا الميثاق الضمانات اللازمة لتأدية تلك الأمانة على الوجه الأكمل . »

هذا النص أدنى إلى ما كان يحول بخاطر الذين سنوا مبدأ الانتداب ، والفرق بين هذا التعريف وبين ما ذهب إليه اللورد بالفور هو الفرق بين عقلية واضع نظام الانتداب وعقلية الساسة الذين قاموا على تنفيذ هذا النظام .

أنواع الانتداب :

وقد جعل الانتداب جزءاً لا ينفصل من نظام عصبة الأمم ، وهي الهيئة التي أنشئت للسهر على الأمن وتنظيم علاقات الشعوب طبقاً لمبادئ العدل والتعاون . وقد خصصت المادة الثانية والعشرون من ميثاق عصبة الأمم لبيان معنى الانتداب وأغراضه وأنواعه .

ونصت تلك المادة على أن يكون الانتداب من ثلاثة أنواع وذلك تبعاً لدرجة تقدم السكان في الوعي السياسي والنمو الاقتصادي والثقافي وغير ذلك من الاعتبارات البشرية والجغرافية .

فأما النوع الأول فيشمل تلك الأقطار التي كانت من قبل جزءاً من الدولة العثمانية ، وقد بلغ سكانها منزلة من التقدم تجعل من الممكن الاعتراف بهم كأمم مستقلة . وفي هذه الحالة يكون واجب الدولة التي تتولى الانتداب مقصوراً على بذل الإرشاد والمساعدة إلى أن تبلغ تلك الأمم مرتبة النضج السياسي الكامل وتتمتع بالاستقلال التام . ومن الواجب أن يستأنس برأى هذه الأمم في اختيار الدولة التي تنتدب لإرشادها ومساعدتها .

أما انتداب الدرجة الثانية فيشمل المستعمرات الألمانية في غرب وشرق إفريقية في المنطقة الاستوائية وهذه الأقطار يجب أن تتولى الدولة المنتدبة إدارتها ، مع مراعاة مصلحة السكان ورفاهيتهم والعمل على تقدمهم من جميع الوجوه .

أما انتداب الدرجة الثالثة فيشمل أفريقية الجنوبية الغربية . وهي قطر نصف صحراوي قليل السكان متأخم لاتحاد إفريقية الجنوبية . وكذلك يشمل الجزر الكثيرة الواقعة في المحيط الهادي التي كانت من قبل تابعة لألمانيا . وفي هذه الحالة تحكم تلك الأقطار كجزء لا ينفصل من بلاد الدولة صاحبة الانتداب . ولذلك كان هذا النوع أقرب شيء إلى النظام الاستعماري القديم .

توزيع الانتدابات :

كان الواضعون لمبدأ الانتداب والذين دعوا إليه يظنون أن توزيع الأقطار التي يطبق عليها نظام الانتداب سيجرى بطريقة خلاف التي اتبعت فعلاً فيما بعد . كانوا يرون أن توضع تلك الأقطار جميعاً تحت تصرف عصبة الأمم ، وللعصبة الحق في أن تنتدب من تشاء من الدول للاضطلاع بهذا العبء ، وأن تخصص لكل دولة القطر الذي تشرف على إدارته أو تتولى إرشاده ومساعدته . بل وللعصبة الحق في نظرهم أن تتولى هي الإشراف على أى قطر من تلك الأقطار ، وأن تعين الهيئة التي تتولى الانتداب بالنيابة عنها . وقد حاول أصحاب هذا الرأي أن ينصوا على هذا في ميثاق عصبة الأمم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا التأييد اللازم لرأيهم واضطروا إلى النزول عنه .

ونظراً لأن الانتداب بالصورة التي حددها ميثاق العصبة عبء ثقيل تضطلع به الدولة المكلفة به . وهو غرم وليس بفهم ، كان المنتظر أن تتردد الدول في قبول هذا التكليف الثقيل ، وأن تترتب كل منها قبل أن ترشح نفسها لهذه التضحية المرهقة . ولكن الذي حدث فعلاً هو أنه كان هنالك تراحم شديد على تولى الانتداب ، ورغبة حارة في الاستكثار منه جهد الطاقة . ولذلك لم تر الدول الظافرة في الحرب أن تترك أمر توزيع الانتدابات إلى هيئة مستقلة أو شبه مستقلة — مثل عصبة الأمم — وفضلت أن تجرى بينها

المساومات والمفاوضات في اجتماعات خاصة تعقدتها حتى يتفق رأيها على ذلك التوزيع .

وفي النهاية عقدت الدول الكبيرة مؤتمر آ في سان ريمو بإيطاليا - في ربيع عام ١٩٢٠ - واتفقت على توزيع الانتدابات بين الدول ، وخرجت بريطانيا وفرنسا من هذا التوزيع بنصيب الأسد واختصت اليابان بحزر المحيط الهادى ماعدا جزيرة ساموا التي تركت لزيلنده الجديدة ، وكلفت استراليا بإدارة الجزء الألماني من جزيرة غينيا الجديدة . وطلبت بلجيكا أن يكون لها نصيب من هذه الأشياء فأعطيت - على سبيل جبر الخاطر - قطعة من شرق إفريقية الألمانى ، وهى القطعة التي تشتمل على إقليم رواندا وأرندى أما إيطاليا فلم تعط شيئا مطلقا وخرجت من المؤتمر صفرا اليدين . مع أنه عقد في أرضها وتحت سمائها الجميلة .

وهكذا لم يخل توزيع الانتدابات من ظاهرة التكالب والتزاحم والتدافع التي رأيناها من قبل في النشاط الاستعمارى في القارة الأفريقية .

ولا بد لنا أن نلاحظ أن توزيع الانتدابات على هذه الصورة لا يخلو من التناقض مع روح نظام الانتداب نفسه . فان هذا النظام يقضى بأن تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن أعمالها أمام عصبة الأمم . فمن الغريب أن تكون دولة مسئولة أمام هيئة لم تنتدبها ولم تكلفها النهوض بتلك الأعمال التي ستسألها عن تأديتها .

تنفيذ الانتداب

والآن لابد لنا أن ننظر كيف يؤدي الانتداب وظيفته طبقاً للنظم التي قررتها عصبة الأمم . فهناك هيئات مكلفة بالإشراف — ولو من بعيد — على نظام الانتداب ومحاسبة الدولة المنتدبة عن أعمالها ولو حساباً يسيراً .

والهيئة الأولى صاحبة الشأن في مراقبة الانتداب من بعيد هي مجلس عصبة الأمم المؤلف من بضع عشرة دولة . وهو المرجع الأكبر للبت في جميع الشؤون المتصلة بالانتداب — فإليه ترفع التقارير والشكاوى والمقترحات الخاصة بتعديل شروط الانتداب أو إلغاء الانتداب في أى قطر من الأقطار وإحلال أى نظام آخر محله .

وعلى الرغم من أن مجلس العصبة هو الهيئة المختصة بمسائل الانتداب ، فليس هنالك مانع يمنع أى عضو من أعضاء العصبة من إثارة أى موضوع خاص بالانتداب في اجتماعات الجمعية العامة التي تضم جميع أعضاء العصبة . ولكن نظراً لأن هذه الجمعية لا تعقد جلساتها سوى مرة واحدة في كل عام ، كان أثرها في مسائل الانتداب ضئيلاً لا يستحق الذكر .

ولكن هنالك هيئة أخرى كان لها شأن خطير في شؤون الانتداب . وهي الهيئة التي أطلق عليها اسم لجنة الانتداب . وتتألف من أشخاص فنيين لهم دراية خاصة بشؤون الحكم والاستعمار

يختارهم مجلس العصبة لمساعدته وإرشاده في كل أمر يتصل بالانتداب . كانت هذه اللجنة تعقد اجتماعاتها مرة في كل عام على الأقل ، وتلقى التقارير الرسمية التي ترفعها الدول المنتدبة عن الأقطار التي كلفت بإدارتها أو الإشراف عليها ، ويحضر مندوب خاص من كل دولة صاحبة انتداب لكي يجيب على الأسئلة التي توجهها إليه اللجنة .

ولعل هذه اللجنة هي الأداة الرئيسية في نظام الانتداب . لأنها هي التي كانت تتولى فعلاً مناقشة مندوبي الدول صاحبة الانتداب ومحاسبتهم عن أعمالهم . ولكنها لا تملك من السلطة أكثر من أن ترفع بياناً ببحثها هذا إلى مجلس العصبة لكي يتصرف في الأمر كما يشاء . وفوق ذلك لم يكن من حق اللجنة أن تحاسب الدول صاحبة الانتداب إلا بمقدار ما تسمح به نصوص وثيقة الانتداب نفسها .

هذه الوثيقة التي أطلق عليها أحياناً اسم « صك الانتداب » هي التي تتضمن الشروط التي يقوم عليها الانتداب ، فلا يمكن مؤاخذه الدولة المنتدبة على أمر من الأمور إلا إذا كان مخالفاً لبنود تلك الوثيقة . ومن المهم هنا أن نلاحظ أن هذه الوثيقة قد وضعتها الدولة صاحبة الانتداب نفسها ، وهي التي رتبت فصولها وبنودها ، ثم رفعتها بعد ذلك إلى مجلس العصبة لكي يقرها . ومن الجائز أن يعدل المجلس فيها تعديلاً طفيفاً ، ولكنه قلما يمس جوهر تلك الوثيقة . وهذا من غير شك عيب كبير في نظام الانتداب كله

وإجراء معكوس من أوله إلى آخره . فلقد كانت الدولة تنتدب أولا على قطر من الأقطار ثم تقوم هي بوضع شروط الانتداب ثم تعرضها على المجلس للموافقة . وكان الواجب يقضى بأن تكون هنالك هيئة مستقلة — ولتكن السكرتارية العامة لعصبة الأمم — تضع شروط الانتداب لكل قطر طبقا لروح ونصوص ميثاق عصبة الأمم . وبعد أن يوافق المجلس على هذه الشروط يختار الدولة التي تقبل الانتداب طبقا لتلك الشروط .

وذلك الإجراء المعكوس قد مكن بعض الدول من أن تضع في صك الانتداب أموراً لا تتفق مع ميثاق العصبة ، أو أن تجعل شروط الانتداب مرنة سهلة ، بحيث لا تقيد بها في أعمالها بقيود جدية ، وتجعل من الصعب محاسبتها على أي إجراء شاذ تقوم به . وعلى سبيل المثال نذكر هنا أن لجنة الانتداب في سنة ١٩٢٤ حاولت أن تؤاخذ فرنسا على تقسيمها سوريا إلى أربعة أقسام سياسية منفصلة . ولكن اللجنة لم تستطع أن تخرج من هذا الجدل بنتيجة لأن صك الانتداب الفرنسي على سوريا لم يكن يشتمل على نص يمنع تقسيم البلاد وتمزيقها إلى عدة قطع .

وهكذا نرى أن أكبر ما يميز الانتداب عن الاستعمار هو هذه الرقابة الملطفة التي يقوم بها مجلس عصبة الأمم بمعاونة لجنة الانتداب . ولا يفوتنا أن نذكر أن ليس للجنة أو المجلس حق التفتيش أو القيام بأي إجراء في داخل القطر الواقع تحت الانتداب ، بل يجب

الاكتفاء بالتقارير الرسمية التي ترفعها الدولة المنتدبة ، وبالشكاوى الحرة التي تأتيه أحيانا من مختلف الهيئات والأفراد .
كذلك لم يكن في ميثاق العصبة أى نص يخولها أن تتواخذ الدولة المنتدبة على أى إجراء تقوم به أو أى جزاء توقعه عليها ، مثل سحب الانتداب ونقله إلى دولة أخرى ، أو أى إجراء مماثل . ولعل هذا النقص جزء من النقص العام فى كيان العصبة ، ومظهر آخر من مظاهر عجزها عن إرغام الدول على القيام بالتزاماتها .

سير الانتداب :

إن غرضنا الأول من هذا البحث أن نوضح الأركان الأساسية لنظام الانتداب ، وليس لدينا هنا متسع لأن نتتبع سير الانتداب فى كل قطر من الأقطار . ولكن لابد لنا مع ذلك أن نذكر هنا بشيء من الإيجاز بعض الأحوال التى نجمت عن الانتداب فى بعض الجهات لكى ندرك إلى أى درجة كان هذا النظام الجديد خيرا من النظام الاستعمارى القديم . وحسبنا الآن أن نشير إلى الامثلة الآتية :

١ - تولت اليابان الانتداب على عدد كبير من جزر المحيط الهادى ، ثم لم تلبث أن خرجت من عصبة الأمم كلها . واحتفظت بتلك الجزر ، وأخذت تجعل منها قواعد حربية وتديرها كأنها ملك لها لا تؤدى عنه حساباً أو تصدر عنه بياناً لآية هيئة من الهيئات أو دولة من الدول .

٢ — ارتكبت فرنسا في انتدابها على سوريا مخالفات خطيرة ،
أهمها قمع الحركة الوطنية بأساليب بالغة منتهى العنف ، مع أن
الميثاق صريح في أن واجبها الأول تأييد الحركة الوطنية والسير بها
إلى الاستقلال التام . وارتكبت فرنسا فوق ذلك ما هو أجل من
هذا خطراً ، فقد نزلت لتركيا في عام ١٩٢٠ عن إقليم قليقية ، ثم
نزلت لها في عام ١٩٣٩ عن سنجق الاسكندرونة . وقامت بكلا
الإجراءين - وهما يشتملان على مخالفات صريحة لصك الانتداب -
دون الرجوع إلى عصبة الأمم .

٣ — بدأت بريطانيا سياستها في العراق بقمع الحركة الوطنية
وبإرسال جيش بقيادة الجنرال سير آبلر هولدين لهذا الغرض
عام ١٩٢٠ ، ثم اضطرت بعد أن اقتنعت بإخفاق سياسة العنف
إلى إيجاد ذلك الحل الجديد المبتكر وهو أن تنشئ معاهدة بينها
وبين حكومة العراق لتحل محل الانتداب . وهكذا العراق استبدل
بقيود الانتداب قياداً جديداً قبله بمحض اختياره .

٤ — ولا يتسع المقام هنا للإشارة إلى الانتداب الفلسطيني
الشاذ . ولكن أمره على كل حال معروف للقراء في جميع الأقطار
العربية . وربما كانت هنالك ناحية واحدة لهذا الانتداب الشاذ
لا يذكرها أكثر الكتاب ، وهي أن مشكلة فلسطين مشكلة خلقها
بريطانيا خلقاً عن عمد وعن سبق إصرار لكي تثبت اقدامها
في هذا الركن الخطير من أركان العالم . فقد أدركت السياسة البريطانية

أن فلسطين من الموقع الحربي والأهمية الروحية لجميع الشعوب ما يجعل السيطرة عليها أمراً لازماً للدولة مثل بريطانيا . ورأى السياسة البريطانيون أن ميثاق العصبة ينص صراحة على أن سكان فلسطين يؤلفون أمة ذات كيان مستقل ولا تحتاج إلا لقليل من الإرشاد والمساعدة لكي تنال الاستقلال التام . فلم يكن بد من إدخال عنصر جديد في السكان بطريقة توغر صدور العرب ، وبذلك يسود البلاد النزاع والشقاق ، وتشتد الحاجة إلى حاكم « محايد » لكي يفصل بين المختصمين ، وبذلك تضمن بريطانيا بقاءها في فلسطين إلى أجل غير مسمى .

وهكذا عمدت بريطانيا إلى خلق مشكلة مفتعلة من أجل تثبيت أقدامها في فلسطين . ولكيلا يكون لدى القارىء أدنى شك في هذا ، فإنني أسوق إليه دليلين من شهادة كاتبين من كبار الكتاب البريطانيين أنفسهم :

فقد جاء في الجزء الرابع من كتاب المؤرخ العظيم الأستاذ تمبرلي عن مؤتمرات الصلح العبارة التالية :

« كان لدى بريطانيا أسباب خاصة دعته إلى السياسة التي اتبعتها في فلسطين . وهذه الأسباب قد تبينها في المزايا البديهية لتغطية قناة السويس من الناحية الشرقية ، في إقليم يسكنه عنصر من الناس يرى مصالحته في تأييد بريطانيا وموازرتها ، هذا إلى جانب

ما تناله من تأييد اليهود في جميع أنحاء العالم . هذه هي النظرة البعيدة التي اقتضتها المصالح البريطانية الاستعمارية ،^(١)

هذه العبارة ذات المدلول الواضح جاءت في كتاب من الطراز الأول لمؤلف من كبار المؤرخين البريطانيين . وكنا نستطيع الاكتفاء بها ، ولكننا رغبة في زيادة الإيضاح نشير إلى ما جاء في كتاب آخر لمؤلف وسياسي مشهور وهو السير مارتن كونواي^(٢) . وقد استطاع أن يعالج هذا الموضوع بصراحة يشكر عليها . قال حضرته ، إن الخطر الحقيقي على قناة السويس لا ينجيء من الغرب بل من الشرق . فمن ناحية فلسطين ينجيء الخطر الجدي دائماً . . . ومن وراء فلسطين سوريا — ومن وراء سوريا الأتراك — ومن وراء الأتراك أية دولة قد تكون معادية لبريطانيا — ألمانيا في الماضي أو روسيا في المستقبل . . . من يدرى ؟ ولقد أثبت الفرنسيون أنهم أنداد ينافسوننا لا أصدقاء يعاونوننا . ولذلك كان قبض بريطانيا على فلسطين مصلحة امبراطورية من الطراز الأول .

"Great Britain's hold on Palestine is an Imperial interest of the first order."

ثم يمضي الكاتب بعد ذلك لكي يشرح فائدة وجود طائفتين مختصمتين في فلسطين ، وما يتطلبه هذا من وجود هيئة خارجية

^(١) Harold Temperly, History of the Peace Conference, Vol (IV) P 171

^(٢) Sir Martin Conway, Palestine and Morocco, Chapter XII (1932).

محايدة لكي تحمي كل فريق من عدوان الآخر . وهذه في نظره حالة مثالية لأنها تتطلب بقاء بريطانيا في فلسطين إلى أجل غير محدود . وهكذا يرى القارئ أننا لا نظلم بريطانيا أقل ظلم حين نقرر أنها خلقت المشكلة الفلسطينية خلقاً من أجل تثبيت أقدامها في فلسطين — وأنها جعلت من الانتداب وسيلة لمتابعة سياستها الاستعمارية .

الانتداب والوصاية :

واضح مما تقدم أن الانتداب قد ارتكبت في ظله آثام وشورور جعلته بغضاً إلى العيون والأسماع . حتى آمن الناس جميعاً بأن نظام الانتداب ما هو إلا مظهر جديد من مظاهر الاستعمار ، بل إن بعض مظاهره قد تكون أبشع وأفظع مما عرف في تاريخ الاستعمار كله .

من أجل ذلك أراد المرحوم الرئيس روزفلت أن يخلق نظاماً جديداً ، وأن يجعل له اسماً جديداً واختار للحالة الجديدة اسم « الوصاية » بدلاً من الاسم القديم المكروه . وقد أراد رحمه الله أن يدخل جميع المستعمرات والحمايات ومناطق النفوذ ضمن نظام الوصاية الجديد ، وألا يكون هذا النظام مقصوراً على الأراضي التي سلبت من إيطاليا واليابان بسبب الحرب العالمية الثانية . ولكن الأجل لم يمهل الرئيس الجليل ، ففضى نخبه قبل انعقاد مؤتمر

سان فرانسيسكو بأسبوعين اثنين ، وهو المؤتمر الذى أنشأ نظام الوصاية الجديد ووضع بنوده ونصوصه ، وضمنها ثلاثة فصول من ميثاق الأمم المتحدة ، وهى الفصل الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر .

وأريد أن أتجنب مضايقة القارىء فلا أشرح له تفاصيل نظام الوصاية . كما سبق لى أن شرحت نظام الانتداب . فإن مثل هذا الشرح التفصيلى يستدعى تكرارا مملا . وحسبى أن أذكر هنا النواحي الهامة التى يختلف فيها نظام الوصاية عن الانتداب من الناحية النظرية الصرفة . وتتلخص هذه الاختلافات فيما يلى :

١ — تمتاز وثيقة الوصاية بأنها تتناول المستعمرات والأقطار التى لا تدخل تحت نظام الانتداب القديم أو نظام الوصاية الجديد . وذلك بأن تعهدت الدول فيما يختص بتلك الأقطار بأمور هامة . إذ أعلنت أن مصالح هذه الأقاليم لها المقام الأول ، وأنها ترى أن من واجب كل دولة أن تعمل على تنمية رفاهية سكان هذه الأقاليم وأن تكفل تقدم هذه الشعوب فى السياسة والاقتصاد والتعليم ، وأن تنمى فيها الحكم الذاتى ، وأن تقدر الأمانى السياسية لتلك الشعوب حق قدرها . وأن ترسل — فوق ذلك — بيانات عامة . فى مواعيد منتظمة عن أحوال كل قطر إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة .

٢ — أدخلت فى نظام الوصاية ظاهرة جديدة وهى تقسيم

الأقطار إلى قسمين : أقطار ذات صفة عسكرية ، وأخرى ليست ذات صفة عسكرية . والمفهوم ان هذا التقسيم قد عمل إرضاء للرأى العام الأمريكى الذى أبدى تمسكه بجزر المحيط الهادى ليجعل منها قواعد عسكرية لمنع العدوان اليابانى أو أى عدوان آخر فى المستقبل .

٣ — تكون الأقطار ذات الصفة العسكرية تحت إشراف مجلس الأمن . أما الأقطار الأخرى التى توضع تحت نظام الوصاية فتكون تحت إشراف مجلس الوصاية وهو هيئة تابعة للجمعية العامة .

٤ — لمجلس الوصاية حق التفيتش وزيارة الجهات الخاضعة لنظام الوصاية .

٥ — يجوز أن تسند الوصاية على أى قطر إلى هيئة الأمم المتحدة نفسها لا إلى دولة من الدول .

هذه هى الفروق الجوهرية بين النظام الجديد والقديم . ونلاحظ أنه ليس فى الميثاق نص على كيفية توزيع الأقطار بين الدول الوصية . وكذلك ليس هنالك نص يمكن هيئة الأمم المتحدة من خلع أحد الأوصياء إذا أساء الوصاية — على الرغم من الجهود الكثيرة التى بذلت لإدخال مثل هذا النص .

وهكذا يرى القارى أن نظام الوصاية لا يخرج كثيراً عن كونه

صورة ملطفة أو طبعة جديدة من نظام الانتداب . وليست العبرة
على كل حال بالنصوص النظرية التي تضمنها هذا الميثاق أو ذاك .
فقد رأينا أن نصوص الانتداب لم تكن في ذاتها رديئة . وإنما
العبرة بتطبيق هذه النظم ، وبالروح التي تمارس بها كل دولة عملها ،
وتؤدي بها رسالتها وتنفذ عهودها .

الاستعمار العسكرى

يحلو للدول الاستعمارية أحياناً أن تبحث عن ذريعة تتذرع بها لاغتصاب بعض الأقطار ، تجنباً للاعتراف بأن الدوافع الحقيقية لسياستها هي شهوة التملك والجشع الاستعماري الصرف . ولذلك نراها تزعم في مختلف المناسبات ، أنها لم تلجأ إلى اغتصاب بقعة مامن الأرض واحتمال الأعباء الباهظة التي يفرضها عليها هذا الاغتصاب ، إلا لضرورة لا مفر منها ، وهي ضرورة الدفاع ضد عدوان تتوقعه أو تتوهمه . وقد تمر الأجيال والقرون دون أن يحدث هذا العدوان ، أو قد يحدث العدوان بسبب التوسع الاستعماري نفسه ، وبسبب الاستيلاء على بقعة بالذات ، ومع ذلك تظل هذه الدول مصرة على زعمها أن بواعث الدفاع هي التي تضطرها للتمسك بتلك الأقاليم .

وهذه البقاع التي تختص بدعوى الدفاع ضد عدو مجهول أو مزعوم ، يطلق عليها عادة اسم المستعمرات العسكرية . وهي تختلف في كمها وكيفها اختلافاً شديداً : فمنها ما هو صخرة صغيرة مثل مستعمرة جبل طارق ، ومنها ما يتناول قطراً بأكمله بأراضيه وسكانه وعامره وغامره مثل القطر المصري الذي وصفته السياسة الاستعمارية أكثر من مرة بأنها جزء من « مواصلاتنا الإمبراطورية » .

وذريعة الدفاع العسكرى ذريعة واسعة لا تقف عند حد ،
ولا يسكن لها جشع . فمن أجل الدفاع عن الهند عملت بريطانيا
على تحويل المحيط الهندى كله إلى بحيرة بريطانية ، فأصبحت
سواحله الأفريقية كلها — باستثناءات تافهة — يرفرف عليها العلم
البريطانى . وأمكن لبريطانيا بعد الاستيلاء على عدن أن تمد
نفوذها على الشاطئ الجنوبى للجزيرة العربية ، كما استطاعت أن
تبسط نفوذها على معظم الخليج الفارسى وأن تبعد عنه كل نفوذ
أجنبى وبذلك تم لها ما أرادت بأن حولت المحيط الهندى إلى
بحيرة بريطانية خالصة لوجه بريطانيا العظمى . . كل هذا من أجل
الدفاع عن النفس !

وكثيراً ما عملت الطبيعة على إثارة الشهوات الاستعمارية لأن
البحار فى مواضع كثيرة تضيق بحيث لا يفصل الشاطئين أحدهما
عن الآخر سوى ممر ضيق ولذلك نسميه مضيقاً أو بوغازاً . (١)
وهذه المضائق من أهم الظواهر الطبيعية التى يسيل لها اللعاب
الاستعمارى ، لأن من يسيطر على المضيق يتحكم فى طرق الملاحة
ويضع السفن والأساطيل تحت رحمته . وعندما استولت فرنسا
فى الربع الأخير من القرن الماضى على مستعمرة جيبوتى ، وهى
الواقعة على مضيق باب المندب صاح السياسة البريطانيون — فى ألم
شديد — بأن فرنسا قد قبضت على عنق الإمبراطورية البريطانية .

(١) البوغاز فى اللغة التركية معناه العنق .

ولا ينبغي للقارىء أن يعجب من الإشارة إلى عنق الدولة لأن بعض الدول بلا شك لها عنق شديد الخطر ، حساس إلى أقصى درجات الحساسية ، بحيث يجب أن يحاط بأنواع الوقاية والرعاية حذراً عليه وعلى الدولة التي ينتمى إليها من أن يصيبها سوء . . . فالعنق عضو حساس فى الدول كما هو عند الناس على حد سواء . ولقد يطول هذا العنق ويمتد حتى ليتمكن أن توصف بعض الدول بأنها عبارة عن عنق طويل قد التصقت به أجزاء وأعضاء وأشلاء متنوعة . ولولا هذا العنق العظيم ما جاز لهذه الاوصال المتفرقة المتباعدة أن تؤلف جسماً متحداً ولا كيانا مؤتلفاً .

وبديهي أن ليس لكل دولة عنق ، كما أن من ضروب الحيوان ما ليس له عنق يستحق الذكر مثل الأسماك وما يشابهها من الكائنات ومنها ما له عنق عظيم مثل النعام والزراف والإبل وأضرابها . وكذلك الدول . ولا شك أن خير مثال للدولة ذات العنق الطويل العظيم هو بريطانيا العظمى التي يمتد عنقها من الجزائر البريطانية فى المحيط الأطلسى إلى مضيق سنغافوره ، وهو الباب المفضى إلى المحيط الهادى . وهكذا أمكن لهذا العنق الهائل أن يدور حول الكرة الأرضية دورة عجيبه وأن يشمل جهات وأقطاراً متباعدة مترامية وأن يخلق مشكلة معقدة فى كل بقعة يمر بها .

إن وجود المضايق التي تصل ما بين البحار وتقرب ما بين القارات هو بلا شك نعمة من أجل النعم التي أتاحها الطبيعة للإنسان

ويسرت بها وسائل للانتقال بين البحار والمحيطات ولولاها لكان كثير من البحار مثل البحر الأحمر والأسود والأبيض المتوسط والبحر البلطى عبارة عن بحيرات مغلقة يتعذر الوصول إليها وتعجز السفن عن الانتقال إليها . فانظر كيف تحولت هذه النعمة الجليلة إلى نقمة على الدول والشعوب بفضل سياسة الاستعمار وحرص الدول على أن تستأثر دون غيرها بتلك المواقع الخطيرة .

وقد حرصت الدول على التكالب على امتلاك المضائق وسفكت من أجل ذلك دماء وأزهقت أرواح والأصل في هذا التكالب أن يكون بسبب توهم بعض الدول أن هذا التملك عمل تمليه المصلحة لأن هذا الطريق البحرى الضيق هو كما وصفنا بمثابة العنق من جسمها . غير أن الدول الاستعمارية كثيراً ما يجيش صدرها بشهوة القبض على المضائق ، حتى ولو لم تكن « عنقاً » لها وليس له بها أدنى صلة . لأن القبض على مضيق خطير تشتهيه تلك الدول لذاته ، لأنه إن لم يكن عنقاً للدولة القابضة عليه ، فإنه على كل حال عنق لغيرها من الدول . ومن ذا الذى لا يرضيه فى السياسة الاستعمارية أن يقبض على أعناق الدول الأخرى صديقة كانت أو غير صديقة ؟ لذلك قامت بريطانيا - وغرامها بالمضائق قديم وحبها للاعناق حب مبرح - بعد الحرب العالمية الأولى ، بإثارة حرب أخرى صغيرة فى الشرق الأدنى من أجل بسط نفوذها على مضائق البسفور والدردينيل مع أن هذا الطريق الخطير هو العنق الحساس

لدول مثل بلغاريا ورومانيا وروسيا وليس لبريطانيا به شأن إذ ليس لها جزيرة واحدة أو صخرة في جميع أنحاء البحر الأسود حتى تبرر بذلك الاستيلاء على هذا الاقليم . ولكن هذا لم يمنع بريطانيا من أن تشتهى القبض على هذه المضائق الخطيرة لكي تصبح وحدها هي القابضة على تلك الأعناق الحساسة . وبادرت باحتلالها بجيوشها وأساطيلها وأرادت أن تنشئ نظاما للحكم تصبح بمقتضاه صاحبة الأمر والنهي فيها . ولقد رأينا فرنسا التي خاضت غمار الحرب العالمية الأولى مع صديقتها وحليفها تغار على هذه المواقع الهائلة أن تقع في يد صديقتها وزميلتها ، فأخذت تكيد لها وتمد تركيا بالمعونة الصادقة لكي تنتصر وتفوز بهذه المضائق حتى تستبعد بذلك نفوذ حليفها العزيزة . وقد اضطرت بريطانيا إلى التخلي عن المضائق وفي صدورها حسرة ، لأن شعبها الذي انهكته الحرب العالمية الطويلة ، لم يكن في ذلك الوقت مستعداً لأن يخوض غمار حرب أخرى . وقد صاح الاستعماريون في ذلك الوقت في كمد وحسرة بأن بريطانيا تضيع ثمرات النصر في الحرب العالمية الأولى ، كأنهم لم يكفهم الاستيلاء على نصيب الأسد من مستعمرات ألمانيا . ولكن صيحة الألم هذه لم يكن لها أثر عملي ولجأت السياسة إلى طريقها المألوفة فتغيرت الوزارة البريطانية وحل المستر بونارلو محل المستر لويد جورج .

واضح مما تقدم أن الاستعمار العسكرى من أهم الذرائع التي
تتذرع بها السياسة البريطانية وأنه يتمثل بوجه خاص في المضائق
والاستيلاء عليها ولذلك يجدر بنا أن نتناول هذه الظاهرة ببعض
التفصيل.

فأرأس الدولة البريطانية — الممثل في تلك الجزر المنبسطة في
الشمال الغربى من أوربا — منفصل عن سائر جسم الإمبراطورية
انفصالا شديداً. ورأى الاستعماريون أن لا بد من عنق هائل
طويل يصل ذلك الرأس ببقية الجسم ثم لا بد بعد ذلك من بذل
جهود جبارة حتى لا يمس هذا العنق بسوء.

وأول فقرة من فقرات هذا العنق هى مضيق دوفر. ها هنا
يضيق المانش ويقرب الساحلان الأوربى والبريطانى بحيث
لا يفصلهما إلا مسافة تقرب من العشرين ميلا. وقد ربطت على
أحد جانبي المضيق إنجلترا وعلى الجانب الآخر فرنسا، تنظر إحداهما
إلى الأخرى نظرة الخصم اللدود حيناً ونظرة الصديق المتكلف
حيناً. وليست حياة هذا المضيق والاستيلاء عليه بأمر ذى خطر
لإنجلترا. وكان الأمر البديهي أن يكون الساحل الفرنسى لفرنسا
ولكن هذه لم تكن الحال فيما مضى من الزمان فقد جاء على بريطانيا
حين من الدهر بسطت فيه نفوذها على الساحل الأوربى للمضيق
وقبضت على مدينتى كاليه وبولونيا وقد بقيت الأولى فى حوزتها
زمناً غير قليل وقد صححت الأوضاع فيما بعد وأصبح الساحل الفرنسى
ملكاً لفرنسا غير أن بريطانيا لا تزال شديدة الاحساس لما قد

يتعرض له هذا المضيق من خطر حقيقي أو موهوم ولذلك رأينا الحكومات البريطانية ترفض السماح بإنشاء نفق تحت المانش ، يصل الأراضي الفرنسية بالإنجليزية مع أن هذا النفق جليل الفائدة للدولتين في وقت السلم والحرب .

والظاهر أن بريطانيا قد تعلمت على سواحل مضيق دوفر حب المضايق والاستيلاء عليها ولذلك نراها في وقت مبكر وفي ظروف مريبة تقبض بشيء من العنف وفي شيء غير قليل من الخيانة على حصن جبل طارق لكي تتحكم في هذا الموقع الشديد الخطر . أو الذي أصبح فيما بعد عظيم الخطر .

استولت إنجلترا على جبل طارق في أول القرن الثامن عشر ولم تكن هنالك قناة السويس ولم يكن هذا المضيق طريقاً إلى الهند . استولت عليه في ظروف غريبة . تجلت فيها السياسة البريطانية في أوضح مظاهرها . ذلك أنها في عام ١٧٠٤ كانت تحارب إلى جانب هولندا والنمسا عدوتها القديمة فرنسا ومعها أسبانيا . وهي الحرب التي أطلق عليها اسم حرب وراثة العرش الأسباني . وفي إحدى حوادث تلك الحرب استولى الأسطول الهولندي الإنجليزي على حصن جبل طارق وكان الاستيلاء عليه من أجل ولي عهد النمسا وباسمه . غير أن الأميرال البريطاني بادر فرفع الراية البريطانية على الحصن . وأسرعت حكومة ذلك العهد فأقرت عمل الأميرال فأصبح الحصن أرضاً بريطانية منذ نحو قرنين ونصف قرن من الزمان .

لم تكن لمضيق جبل طارق في ذلك الوقت تلك الأهمية التي أصبحت له فيما بعد . ولكنه لم يلبث أن أصبح من أجل المواقع خطراً . وظهرت ميزاته الطبيعية والحربية . فعنده يضيق البحر جداً وتدنو أفريقية من أوربا بحيث لا يفصل إحداهما عن الأخرى سوى بضعة عشر ميلاً ، وفي وسع مدافع الحصن أن تتحكم في كل سفينة تمر من هذا المضيق .

وكانت دول أوربا في شغل بشئونها الخاصة أول الأمر ولكنها بعد أن انتهت من سياستها وأخذت تتزاحم في حلبة الاستعمار ، اشتد تكالبها على هذا المضيق حتى لقيت إنجلترا عنتاً شديداً ومشقة هائلة لكي تذود الدول عن هذا الجزء الحساس من عنق الدولة البريطانية فقد أخذت تتطلع إلى شواطئ هذا المضيق دول خطيرة مثل ألمانيا وفرنسا وأسبانيا — بحكم الجوار — والجار كما يقولون أولى بالشفعة . ولم يقتصر الأمر على الشاطئ الأوربي للمضيق بل تجاوزته إلى الشاطئ الإفريقي أيضاً .

ولم تستطع بريطانيا أن تذود جميع الدول عن شواطئ المضيق فرأت أن تقبل أهون الشرين وأن تشجع أسبانيا على احتلال شطر عظيم من سواحل هذا المضيق في الجانب الإفريقي ، لأنها في ذلك الوقت لم تكن دولة ذات خطر . لهذا رأينا بلاد الريف تقتطع من مراکش وتعطى لأسبانيا ، وذلك لكي تحرم منها فرنسا . فما كان لبريطانيا أن ترتاح لرؤية صديقتها فرنسا على الساحل الإفريقي من مضيق جبل طارق .

ولكن بريطانيا لم ترضى أن يكون الساحل الإفريقي كله خالصاً
لأسبانيا فهناك موضع عظيم الخطر لم تستطع بريطانيا أن تأخذه
لنفسها ، ولكنها لم تتركه لأسبانيا ، وهذا الموضع هو مدينة طنجة
والأرض المحيطة بها ، وهي بلا شك مفتاح المضيق من الجانب
الإفريقي . وقد طمعت في طنجة كل من فرنسا وألمانيا وأسبانيا
وبريطانيا ، وانتهى هذا التنارع والتدافع بأن أنشئ لطنجة نظام
دولى تشترك فيه نحو أربعة من الدول ، وقد تغيرت وتبدلت قليلا ،
وهي فى الوقت الحاضر بريطانيا وفرنسا وأسبانيا والولايات المتحدة
الأمريكية . ولبلجيكا أيضاً عدد من الوظائف فى طنجة جرت
العادة على أن لا يعين فيها سوى البلجيكين . . .

وتمثل طنجة حالة فريدة منقطعة النظير فى الميدان الاستعماري
كله ، وذلك بفضل موقعها الممتاز على هذا المضيق الخطير .

والموضع الذى يلى جبل طارق فى الطريق إلى الشرق وإلى
الهند هو بالطبع جزيرة مالطة ، وهى أيضاً تشرف على مضيق عظيم
الخطر ، وإن لم ينتبه إليه أكثر الناس ، وهو مضيق صقلية . فهنا
تقترب افريقية مرة أخرى من أوروبا ، وتدنو تونس من صقلية ،
وتقف جزيرة مالطة فيما بينهما فى منتصف المسافة تحرس الطريق
الضيق الذى يصل النصف الغربى من البحر المتوسط بالنصف
الشرقى فى موقع استراتيجى من الطراز الأول . وقد وضع ماله
من الخطر بعد حفر قناة السويس وازدياد الملاحة فى البحر

المتوسط . غير أن الإنجليز لم ينتظروا حتى تزداد أهمية ذلك الموقع بل بادروا فاستولوا على هذه الجزيرة في أوائل القرن التاسع عشر ، في ظروف تحاكي تلك التي قبضوا بها على جبل طارق وبوسائل مشابهة .

ثم قناة السويس — وما أدراك ما قناة السويس ! — فقرة ضئيلة جداً خطيرة جداً من فقرات ذلك العنق العظيم . ليست ملكا لصاحب العنق ، وليس له فيها حق مشروع ولم يشترك في إنشائها وحفرها فلم يكن له عذر أو شبهة عذر في المطالبة بأى حق من الحقوق فيها . وأغلقت في وجهه جميع الذرائع والوسائل التي تحمل ولو أتفه المبررات . ولذلك التجأ الاستعمار إلى سبيل الخيانة وإلى ارتكاب الإثم والعدوان ، ولم يكن بد من أن يحنث في عهوده ، وأن تحرب الذم ويتداعى الشرف الرفيع حتى ينهار . كل هذا من أجل السيطرة على هذه القناة الصناعية التي تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، وتقرب الطريق إلى المحيط الهندي وبلاد الشرق الأقصى . من أجلها جرى بجيش جرار ليحتل هذه الديار . ومن أجلها استولت بريطانيا على جزيرة قبرص إمعاناً في الحرص وخوفاً من أن تقع في يد عدو موهوم قد يتخذها وسيلة للعدوان على القناة . ومن أجلها اقتطعت فلسطين من جسم سوريا وخلقت المشكلة الصهيونية خلقاً . وارتكبت في أثناء هذه السبعين عاماً من الآثام والشرور ما يعز أن نجد له مثيلاً حتى في تاريخ الاستعمار .

وقد تطور العالم وتطورت فنون الحرب والدفاع ووسائل
التخريب والتدمير ، وأثبتت الحرب العالمية الأولى والثانية بوجه
خاص أن طريق القناة عديم الفائدة وقت الحرب ولذلك لم يكن يستخدم
في الملاحة إلا نادراً ، فضاع بذلك السبب الأول في حب السيطرة
على القناة . غير أن العقلية الاستعمارية لم تتطور بتطور الزمن ،
ولذلك لا تزال متشبثة بالقناة تعض عليها بالنواجذ كما يعض الكلب
على قطعة من العظم لم يبق فيها نفع ولا فائدة .

* * *

ولنمض بعد ذلك في طريقنا نحو الجنوب . فلا نكاد نبلغ
الطرف الآخر من البحر الأحمر ، حتى نرى هذا البحر يضيق مرة
أخرى وكأنما آسيا قد اشتاقت إلى إفريقية فدنت منها دنواً شديداً .
وإذا الدول تتكالب على مضيق باب المندب كما تكالبت على مضيق
جبل طارق . وإذا انجلترا السباقة في هذا الميدان قد قبضت يدها
على عدن في الثلث الأول من القرن الماضي ، ثم أخذت تزيد
في عدن وتمدها ذات اليمين وذات الشمال ، تارة نحو حضر موت
وطورا نحو اليمن ، فلا تمضي عشرات من السنين حتى تصبح عدن
مستعمرة حربية ذات حجم لا يستهان به ، وأصبح الساحل الشمالى
لخليج عدن خاضعاً كله لبريطانيا . وإمعاناً في الاحتياط للطوارئ
والملاسات التى لا وجود لها بسطت بريطانيا نفوذها على
الساحل الجنوبي لخليج عدن أيضاً حيث أنشأت ما يسمى مستعمرة
السومال البريطانى .

وقد بادرت دول أخرى فأحرزت مواقع لها خطرها على هذا المضيق ولعل أعظمها خطراً استيلاء فرنسا على جيبوتي (أو السومال الفرنسي). وهو موقع خطر جداً لا يقل شأنًا عن عدن نفسها. ولا شك أن فرنسا بسطت يدها عليه في غفلة من بريطانيا. ولكن مركز بريطانيا هنا لم يزل برغم هذا كله، مركزاً قوياً متمتازاً، بفضل اتساع مستعمرة عدن وبفضل استيلائها على بعض جزر المضيق. ولا تنتهي المطامع البريطانية في الاستيلاء على المواقع العسكرية الممتازة عند مضيق باب المندب والوصول إلى المحيط الهندي كما أن يتوهم بعض الناس، بل إن هنالك مضيقاً آخر لا يقل خطراً عما تقدم، في الطرف الجنوبي من آسيا: ألا وهو سنغافورة، ذلك الطريق الضيق الخطير الذي يصل المحيط الهندي بالمحيط الهادي والذي تحرسه قاعدة حربية ضخمة أنفق في إنشائها بضعة عشر مليوناً من الجنيهات الاسترلينية.

وبعد فهذا وصف موجز عن طائفة من البحار الضيقة التي أنشبت فيها الاستعمار مخالبه، وقد تقدم في صدر هذا الفصل، أن الدول الاستعمارية تلتبس لنفسها المعاذير وتعزو اغتصابها لتلك الأقطار إلى الضرورة العسكرية وما يتطلبه كيان الدولة من قواعد للدفاع عنها، وتأمينها ضد خطر حقيقي أو وهمي، ونستطيع أن نفهم أن الاستعمار يحاول أن يستر وجهه بقناع من الأسباب والأعذار. ولكن الأمر

المستغرب أن كثيراً من الناس يميلون إلى تصديق تلك الحجج ويرون في تلك المعاذير بعض الوجاهة . لأن بريطانيا — في نظرهم — قد تعددت ممتلكاتها وانتشرت في أنحاء إفريقية وآسيا ، حيث كانت الهند بعظمتها وجلالها تؤلف وحدها امبراطورية ضخمة . ووراء الهند مستعمرات أخرى في المحيط الهندي والهادى ولا بد من تأمين الطريق الموصل إليها .

تلك هي الحجج والمعاذير التي يقبلها كثير من الناس على أنها أعذار قوية وبراهين أكيدة . وينسى هؤلاء الناس أن مثل بريطانيا في سياستها الاستعمارية ، كمثل قوم اغتصبوا منزلاً فخماً واحتلوه على الرغم من أهلهم ، ثم أخذوا يحتلون الطرق التي تؤدى إليه من أجل المحافظة على ذلك المنزل الضخم الذى اغتصبوه . . . أى أن هذه المعاذير لا تعدو أن تكون عبارة عن تبرير سرقة لاحقة بسرقة سابقة ، ولم يفكر هؤلاء الناس بأنه كان من الممكن الامتناع عن السرقات الأولى حتى لا يكون هناك حاجة أو شبه حاجة للسرقات الأخرى .

فالخطة الاستعمارية التي سلكتها بريطانيا، والتي ظل أبناؤها زمناً طويلاً يفتخرون بها ويرونها عنوان النبل والسؤدد والعظمة، هي التي جعلت الدولة البريطانية مبعثرة في جميع الأنحاء، وأثارت المشاكل الدولية التي أفضت إلى الحروب المدمرة ، وهي التي قضت باتباع أساليب الغش والخيانة والغدر من أجل الاستيلاء على أقطار جديدة في كل ركن من أركان العالم .

حرب الأفيون

لعل من الصعب على القارىء أن يتصور أن دولة من الدول تسخر جيوشها وأساطيلها وتشن حربا عوانا تدوم عدة سنوات على بلاد آمنة مطمئنة لكي ترغم سكانها وحكوماتها على قبول الأفيون كسلعة تجارية مشروعة من أجل ما يجنيه تجارها من الأرباح الطائلة وما يحصلونه من الثروات الضخمة من المتاجرة في هذه السموم . أجل قد يكون من الصعب علينا أن نتصور أن مثل هذا الجرم الشنيع ترتكبه دولة تنتمي إلى الدول ذات الحضارة والمدنية وتنتسب إلى ديانة سمحة كريمة وهي الديانة المسيحية ومع ذلك فليس شيء بمستغرب في الاستعمار لأن هذا هو ما حدث فعلا في حربين عظيمتين شنتهما بريطانيا العظمى على بلاد الصين ما بين عام ١٨٤٠ وعام ١٨٦٠ . ولو أن بريطانيا شنت هذه الحرب من أجل الحصول على مزايا تجارية أو اقتصادية لأمكننا أن نعد عملها نوعا من الاستعمار من الطراز الذي أطلقوا عليه اسم الاستعمار الاقتصادي التي تضطر فيه الدولة الضعيفة بتسليم جزء من مواردها الاقتصادية إلى الدولة الغاصبة بشروط ظالمة مجحفة . ولكن حرب الأفيون كانت أكثر من مجرد عمل من أعمال الاستعمار الاقتصادي ، لأن السلعة التي من أجلها شنت هذه الحرب كانت ضربا من السموم الفتاكة التي أرادت حكومة الصين أن تحمي رعيته من غوائلها وشرورها فأبى الجشع الاستعماري إلا أن ينزل الولايات والكوارث

بالشعب الصيني وأن يززع أركان حكومته من أجل ما تجره التجارة من أرباح طائلة .

والصين كما نعلم بلاد عريقة في الحضارة والمدنية وقد نبغ أهلها في العلوم والفنون منذ عشرات القرون . ومن قبل أن تعرف انجلترا معنى الحضارة المادية أو الأدبية . ولم تكن بلاد الصين تعرف الأفيون إلى أن اتصلت ببعض الغربيين وسمحت لهم حكومتها بأن ينزلوا مدينة كانتون للتجارة في القرن السابع عشر فأخذت هذه السلعة تظهر في البلاد بالتدريج على أيدي بعض التجار من الهولنديين والبرتغال ولكنها كانت تجارة تافهة محدودة . إلى أن دخل الميدان رجال من بريطانيا العظمى فاحتكروا السوق وأخذوا يدخلون السلعة إلى البلاد بمقادير متزايدة عاما بعد عام .

هؤلاء التجار كانوا يعلمون تمام العلم نوع الجريمة التي يقترفونها مدركين كل الإدراك أن الأفيون كارثة فادحة على الصين وسكانها وإن عادة تدخينه تفتك بالجسم وبالعقل وتسلبهما بالتدريج إلى الدمار وكم من إقليم في بلاد الصين أكب سكانه على الأفيون فلم يلبث رجاله أن أصبحوا عاجزين تمام العجز عن بذل أي مجهود جسدي أو عقلي فانحدروا بسرعة من حمأة الرذيلة إلى هوة اليأس^(١) ولكن هذه الاعتبارات كلها لم يكن لها أدنى تأثير في نفوس الإنجليز من تجار ورأسماليين ورجال السياسة والدولة فلم يكن يعينهم سوى

(١) راجع كتاب The Awakening of Asia (Hyndman)

ص ٤٦ وما بعدها (لندن ١٩٤٩) .

أمر واحد هو الأرباح الضخمة التي يجنونها في سهولة ويسر .
ويعود رجال المال هؤلاء إلى بلادهم في انجلترا وقد امتلأت
خزائنها بالملايين من هذه التجارة الشنيعة ، وهذه الملايين يصبحون
ذوى قوة ونفوذ سياسى عظيم يمكنهم من أن يخرسوا كل معترض
ويسكتوا كل محتج ، ويحيلوا الساسة ورجال الدولة أداة طيعة في
أيديهم . وعبثاً حاول بعض رجال الدين من طائفة الكويكرز أن
يلفتوا النظر إلى شناعة الجرم وينشروا آراء رجال الطب عن
التأثير الفتاك لهذه المخدرات . كانت كل هذه الصيحات بمثابة هواء
عليل يهب على صخرة جامدة فلا ينال منها شيئاً . ومن العجيب أن
هذه الظاهرة تتكرر دائماً في الاستعمار البريطانى ، فما من مشروع
استعمارى قبيح مثل تجارة الرقيق أو السخرة والظلم أو نحو ذلك إلا
نهضت جماعات تقاومه وتفضحه وتوضح ما انطوى عليه من المخازى
وتجد هذه الجماعات جماهير تصفق لها وجرائد تفتح لها صفحاتها
ولكن الحكومة التى بيدها الحل والعقد لا تعبأ بهذه الصيحات
والنداءات . وتمضى فى خطتها الاستعمارية قدما ، دون أن تكترث
لسخط الساخطين ونقد الناقدين وكأن هذه الثورة ليست أكثر من
زوبعة فى قدح من الشاي ، وكأن تسميم الشعب الصينى لا يعدو أن
يكون خطباً يسيراً ما دام يؤدى إلى التجميع وات وامتلاك
أقطار جديدة .

وفى وصف هذه السياسة يقول أحد الكتاب الانجليز المتأخرين^(١)

« وليس في التاريخ التجارى الإنجليزى صفحة تلحق ببلادنا عاراً
أشنع مما ألحقته بنا وبتجارنا وساستنا قصة الاتجار في الأفيون مع
الصين ، إذا سردناها ببساطة تامة من غير تهويل أو تزويق . فقد
شدت انجلترا أكثر من حرب واحدة على الشعب الصينى الأعزل
المسكين وذلك من أجل الفوائد التى يجنيها المتجرون في هذه السموم
وقد استولت انجلترا عنوة على أرض صينية اغتصبها اغتصاباً
لكى تجعل منها مرفأ يعتصم به المهربون الذين لم يلبسوا أن اتسعت
تجارتهم وتزايد نشاطهم رغم أنف السلطات الصينية . . . وحسب
أى رجل إنجليزى أن يطالع هذه القصة لى يدرك السبب فى أن
الأجانب يحكمون على هذه البلاد بأنها ، مع ادعائها التمسك بالمبادئ
السامية ، لاتسمح للاعتبارات الإنسانية أن تحول بينها وبين
مطامعها . »

ومن المفيد أن نذكر أن المشاكل التى أثارها تجارة الأفيون لها
ناحية خاصة تتصل بالهند . فقد كانت الهند ولا تزال أكثر الأقطار
إنتاجاً للأفيون وكان حكامها حريصين على أن يجدوا الأسواق
الفسيحة لترويج هذه السلعة . كان هؤلاء الحكام أول الأمر تابعين
لهيئة غير حكومية تسمى شركة الهند الشرقية إلى أن تسلمت الحكومة
البريطانية منها مقاليد الأمور وبسطت سلطانها على الهند مباشرة .
وفى كلا الحالين كان أولو الأمر فى الهند شديدي الحرص على

زيادة إنتاج الأفيون وخلق أسواق ضخمة لاستهلاكه . وكان من نكد الدنيا على الشعب الصيني أن بلاده واسعة مترامية الأطراف وأنها خير سوق للتجار في هذه العقاقير السامة المهلكة .

وكانت التجارة صغيرة محدودة لا تتجاوز المائتي صندوق في العام إلى أوائل القرن الثامن عشر حين أخذ الإنجليز يدخلون الميدان فأخذت تنمو وتزايد بسرعة هائلة حتى اضطرت حكومة بيكين إلى إصدار أول مرسوم يحظر الاتجار والاستهلاك لتلك السلعة وكان ذلك في عام ١٧٣٩ ثم توالى المراسيم بعد ذلك . وبرغم ذلك ازدادت تجارة الأفيون انتشارا وتضخما .

وفي حوالى عام ١٧٧٣ أخذت شركة الهند الشرقية تشارك في تجارة الأفيون عنوة بعد أن كانت التجارة مقصورة على أفراد وجماعات من التجار المستقلين . ولكي يتم لها تحقيق مآربها بالأسلوب البريطاني الاستعماري المألوف ، نراها لا تألو جهدا في إصدار القرارات والأوامر بتحريم الاتجار بهذه السلعة وإظهار ما تنطوى عليه من الوحشية وتنذر موظفيها بالطرد والمحاكمة إذا أقدموا على الاشتراك في هذه التجارة .

كان لا بد من إصدار هذه الوثائق وإعلانها للناس تمشيا مع الأسلوب الاستعماري المألوف . وفي الوقت نفسه عنيت الشركة عناية كبيرة بتشجيع تجارة الأفيون وتوسيع نطاقها وعملت على تخصيص مساحات واسعة من الأراضي الهندية لزراعته على ما في

هذا من الإضرار بمصالح الزراعة بإهمال الغلات الغذائية . واتبعت الشركة في ترويج تلك التجارة الوسائل التي يتبعها القراصنة فأعدت السفن السريعة المجهزة بالمدافع القوية وغيرها من أسلحة الهجوم والتخريب حتى إذا اقتربت السفينة من شواطئ الصين انطلقت منها زوارق سريعة تحمل صناديق الأفيون في حماية رجال مدججين بالسلاح .

لم يكن من المستغرب بعد هذا كله أن تزداد تجارة الأفيون نشاطا واتساعا . . . وأن يرتفع المهرب منه من ٢٠٠ صندوق في عام ١٧٢٩ إلى ١٧٠٠٠ في عام ١٨٣٥ وكانت هذه التجارة كلها في أيدي جماعات من البريطانيين يعاونهم عدد من الأفاقين وبعض الصينيين الذين أغرقتهم الرشوة بخيانة بلادهم ولم يكن هؤلاء الرجال يتورعون عن الالتجاء إلى أخطر أساليب القرصنة والإجرام . فكان من المألوف أن يلجأوا إلى القتل وشن حروب صغيرة على الحراس والموظفين الصينيين إذا خطر لهؤلاء أن يقاوموا وأن يصروا على تنفيذ أوامر حكومة بيكين .

واستفحل الخطب وأخذت آثار هذه التجارة المهلكة تظهر في الشعب الصيني فارتاعت لذلك السلطات العليا في بيكين وأصدر الامبراطور المراسيم الصارمة يحظر استيراد الأفيون وهدد باتخاذ تدابير رادعة نحو مقترفي هذه الجريمة وأبلغت الحكومة البريطانية أن الحالة تزداد خطرا فلم تحرك ساكنا وأرسل الامبراطور مندوبا ساميا من طرفه إلى مدينة كانتون في جنوب الصين حيث يكثُر

التهريب وأمره بأن يبذل كل ما في وسعه لوقف تلك التجارة اللعينة. عين هذا المندوب المسمى لين في عام ١٨٣٩ ومنحه الامبراطور السلطة التامة لاتخاذ كل إجراء نحو أولئك القراصنة ومع ذلك فإنه لم يرض أن يستخدم السلطة المخولة له في تسرع وعنف فكتب كتابا يشرح فيه مأساة الاتجار في الأفيون وما تجره على الشعب الصيني من الفساد والدمار ، ويلتمس أن تساعد حكومة بريطانيا في وقف هذه التجارة ، والتمس بأن يرسل كتابه هذا إلى حضرة صاحبة الجلالة فكتوريا ملكة انجلترا .

وأرسل الكتاب إلى الملكة العظيمة وظلت القرصنة على حالها هنالك ولم يجد المندوب السامى لين مفراً من أن يلجأ إلى الإجراءات الصارمة التي قد تؤدي إلى وقف تلك التجارة أو الإقلال من خطرها وبعبارة أخرى اضطر المندوب السامى إلى أن ينفذ قوانين دولته وأوامر مولاه الامبراطور التي لا غرض لها سوى حماية الشعب الصيني من تلك السموم الفتاكة التي توشك أن تورده موارد الدمار من أجل ذلك حمل المندوب السامى حملة جريئة على مستودعات الأفيون التي كدسها القراصنة ، وأحرقها عن آخرها ثم ألقى القبض على عدد كبير من القراصنة ولم يفرج عنهم إلا بعد أن استكتبهم عهوداً بالآلا يعودوا إلى الاشتغال بتلك التجارة الدنيئة فأمضى كل منهم العهد كارهاً وهو مصمم أن يثأر أشد الثأر للخسارة التي لحقت به. ولم يكده هؤلاء القراصنة أن يطلق صراحهم حتى تصايحوا بأن

إهانات موهومة قد لحقت التاج البريطاني وأن شرف المملكة العظيمة قد تعرض للأذى ، فلم تلبث هذه الصيحات أن وجدت أذنا استعمارية صاغية ولم يمض إلا زمن وجيز حتى أرسلت الأساطيل والجنود المزودون بالمدافع والبنادق وأشهرت حرب شعواء على الشعب الصيني بدأت في أواخر عام ١٨٣٩ ودامت إلى سنة ١٨٤٢ وكانت هذه هي حرب الأفيون الأولى .

كان الجندي الصيني في ذلك الوقت بمثابة الجندي الأعزل إذ لم يكن لديه بنادق ولا مدافع ولا أسلحة ذات خطر . فلم تكن الحرب التي أثارها الإنجليز من أجل حرية الاتجار في الأفيون حربا بالمعنى المألوف بل سلسلة من المجازر والمذابح وكان الشهداء فيها هم أبناء الصين الذين كانت تحصدهم آلات التدمير والفتك حصدا أما ضحايا الفريق المعتدى فتأفهة لا تستحق الذكر .

كانت حرب الأفيون من ذلك الطراز العزيز على قلوب الإنجليز
المحبيب إلى نفوسهم ، وهو الطراز الذي طالما مارسوه بعد ذلك
عشرات المرات في آسيا وأفريقيا . حرب يقف فيها جيش بريطاني مدجج بالسلاح أمام جيش أعزل لا حول له ولا قوة والنصر فيها مضمون سلفاً والهزيمة الساحقة واقعة لا محالة بالخصم الذي أبى أن يذعن صاغراً ذليلاً .

فالشرط الأول في هذا الطراز من الحرب هو أن الخصم ضعيف عاجز عن كل مقاومة . أما الشرط الثاني وهو لا يقل شأنًا عن

الشرط الأول فهو أن الغنيمة ضخمة والمكاسب الاستعمارية عظيمة . فلم يكن الربح مقصوراً على رواج تجارة الأفيون ، بل هنالك أيضاً أقطار تغتصب وميزات محققة تجنى ونفوذ يتسع وشرط جديد من البسيطة يضاف إلى الامبراطورية التي لا تغرب عليها الشمس . فليس في الإمكان أن يتصور إنسان رجماً عظيماً نظير مجهود ضئيل ومكاسب ضخمة لقاء ثمن تافه ، مثل الربح والمكاسب التي حققها بريطانيا بواسطة هذه الحرب التي لم تبدل لها تضحية تستحق الذكر ، سوى تلك الاعتبار الإنسانية التي لا يقيم لها الاستعمار وزناً .

انتهت حرب الأفيون الأولى بهزيمة ساحقة لجيش الصين ثم دارت المفاوضات بين الطرفين وانتهت إلى شيء يسمى معاهدة نانكين وبمقتضى هذه المعاهدة أبعد المندوب السامي المشاكس وامتلكت بريطانيا جزيرة هونج كونج القريبة من الساحل الجنوبي ومن ميناء نانكين ورفع العلم البريطاني على تلك الأرض ذات الموقع الاستراتيجي الخطير ولا يزال هذا العلم يخفق على ربوعها إلى وقتنا هذا . وكلفت حكومة الصين أن تدفع غرامات ضخمة للعدو المظفر ، وتعويضات مالية للتجار الذين خسروا ، أو ادعوا أنهم خسروا بضائعهم .

وقد رأت بريطانيا أن تحافظ على خطة الرياء القديمة فضمنت المعاهدة نصاً يؤكد أن في تهريب الأفيون خروجاً على القانون . ولم يكن هذا القول جديداً . ومع ذلك فإن معاهدة نانكين قد فشلت

كأداة للسلم ، لتصميم البريطانيين على الاتجار بالأفيون بجميع الوسائل الممكنة . وقد أتاح امتلاك جزيرة هونج كونج للبريطانيين مركزاً شديداً للملائمة لجمع الأفيون وتهريبه تحت الراية البريطانية . وبذلت جهود في الوقت نفسه لكي توافق حكومة الصين على أن يكون استيراد الأفيون عملاً تجارياً مشروعاً فكتب لورد بالميرستون إلى المندوب البريطاني في الصين .. ، بالسعي إلى عقد اتفاقات مع السلطات الصينية تسمح بدخول الأفيون إلى البلاد كسلعة من السلع التجارية القانونية ، وعرض هذا الاقتراح فعلاً على الإمبراطور وطلب منه على سبيل الإغراء أن يفرض رسوماً جمركية عالية على الأفيون المستورد حتى تزيد موارد الدولة المالية فرد الإمبراطور بقوله .. « لقد أكون عاجزاً عن منع هذه السموم أن تدخل بلادى بالرغم منى لأن في الناس من تدفعهم شهواتهم وحبهم للمال الحرام إلى عصيان أمرى ، ولكن ليس في العالم قوة تستطيع أن تغرينى بأن استمد للدولة إيراداً من تسميم شعبي ونشر الرذيلة فيه . »

كان هذا هو الرد النبيل الحاسم الذي أدلى به إمبراطور الصين وما على القارئ إلا أن يقارن بين كلمات لورد بالميرستون الوزير المسيحي المتمدن وبين كلمات الحاكم الصيني المتأخر عن ركب الحضارة ، لكي يدرك إلى أى درك سافل ينزل الاستعمار بالنفوس البشرية التي تدعى لنفسها منتهى النبل والصلاح .

وهكذا كانت معاهدة نانكين وسيلة لازدياد التجارة المحرمة

في الأفيون ، وأعدت مستعمرة هونج كونج لإيواء التجار والمهربين والافاقين ، وحصنت تحصينا قويا وأعدت فيها المستودعات لتخزين صناديق الأفيون ، ريثما تنقل بواسطة زوارق التهريب ، وهي زوارق متينة أعدت إعدادا خاصا لأعمال القرصنة والتهريب واسمها لرتشا ، وكانت تزود بالأسلحة وتعطى رخصة رسمية من السلطات البريطانية في هونج كونج حتى تؤدي وظيفتها تحت حماية الراية البريطانية . ولم يكن أصحاب هذه الزوارق كلهم من البريطانيين لأن اتساع التجارة والتهريب جعل من الضروري إشراك آلاف من الناس من مختلف الأجناس وكثير منهم بالطبع من الصينيين أنفسهم ، وهؤلاء جميعا لم يكونوا يتورعون عن الفتك بكل من يحاول منعهم من ممارسة حرفة الجهنمية أو يقيم في وجههم أية صعوبة . وكثيرا ما أزهقت الأرواح وسفكت الدماء بواسطة هذه العصابات التي كانت تعمل دائما تحت الراية البريطانية وبرخصة رسمية من السلطات البريطانية في هونج كونج .

وقد كان نشاط هذه العصابات هو السبب المباشر في حرب الأفيون الثانية التي بدأت في عام ١٨٥٨ لأن الفترة التي انقضت بين الحربين لم تكن سوى فترة عدوان مستمر من السلطات البريطانية ومقاومة ضعيفة من السلطات الصينية ، وإن كانت الكراهية للأجانب عامة وللبريطانيين خاصة قد انتشرت بين سكان الصين حتى دفعهم اليأس إلى بعض المقاومة برغم عجزهم وضعفهم

وقد صمم البريطانيون العزم على أن يرغموا حكومة الصين على أن ترفع الحظر عن استيراد الأفيون ، وإن دعا ذلك إلى حرب جديدة ، وأخذوا ينتظرون أول فرصة سانحة تمكنهم من تحقيق مآربهم فأتاح لهم حادث الزورق المسمى أرو Arrow الفرصة المواتية ؛ وكان هذا الزورق يملكه بعض الصينيين ولكنه كان يحمل رخصة من السلطات البريطانية في هونج كونج وترفرف عليه الراية البريطانية ، ومع أن هذه الرخصة قد نفذت مدتها ولم تجدد ، فإن هذا لم يمنع البريطانيين من أن يدعوا لأنفسهم حق حمايته ورعايته . ولم تكن حال هذا الزورق تختلف كثيراً عن حالة مئات غيره .

ورأت السلطات الصينية أن الزورق (أرو) لا يعدو أن يكون واحداً من الزوارق التي تشتغل بتجارة محرمة ، بل وتجاوز أعمال القرصنة والتهريب إلى النهب والسلب والقتل والتخريب . وعيل صبرها مما يرتكبه أصحابه من الموبقات ، فقبضوا على الزورق وأصحابه وأودعواهم السجن .

وبدیهی أن السلطات البريطانية كانت تنتظر مثل هذه الفرصة بفارغ الصبر فلم يكذب يلقى القبض على الصينيين أصحاب الزورق حتى طلب المندوب السامي في هونج كونج المسمى سيرجون بورنج من السلطات الصينية أن تقدم إليه اعتذاراً رسمياً عما ارتكبت وأن تفرج عن المعتقلين وترد إليهم بضاعتهم . ومع أن السلطات الصينية مدركة ماهي عليه من الضعف ومن العجز عن دفع العدوان ، فإن

إحساسها بكرامتها اضطرها لأن ترفض هذا الطلب . وهذا ما كان يتوقعه البريطانيون . فأخذوا يمتطرون البلاد الصينية والقرى بالقنابل ويخربون الدور والمنازل ، ثم احتشدت جيوشهم وأغارت على بلاد الصين . وقامت بذلك حرب الأفيون الثانية (١٨٥٦/١٨٥٧) ، ولم يكن بد من أن تشور الحرب الثانية ، لأن حرب الأفيون الأولى لم تسفر عن الترخيص الرسمي بتجارة الأفيون وهو السبب الذي من أجله قامت الحرب فلم يكن بد من إثارة الحرب الثانية حتى يتحقق الهدف المنشود .

وقد أسفرت هذه الحرب عن هزيمة الصين كما حدث في الحرب الأولى وكان من أهم نتائجها اتساع مستعمرة هونج كونج بحيث لم تعد مقصورة على الجزيرة المواجهة للشاطئ بل على قسم كبير من الإقليم الساحلي المجاور لها . وبذلك أصبحت المستعمرة متصلة اتصالاً مباشراً ببلاد الصين ، لا تحول بينهما مياه البحر الضيق كما كانت الحال من قبل .

وبدئى أن مستعمرة هونج كونج وامتدادها من الجزيرة إلى القارة يجعل مكافحة التهريب في حكم المستحيل . ومع ذلك فإن البريطانيين كانوا حريصين على ألا تكون تجارة الأفيون مجرد تهريب ، وقد كان الغرض الأساسى من الحرب كلها أن تباح التجارة في هذه السلعة الثمينة ، بحيث تغدو عملاً مشروعاً . ويسر لهم انتصارهم في الحرب أن يكرهوا الدولة على أن تصدر أمراً يبيح استيراد

الأفيون ويفرض ضريبة على المستورد منه . وكان ذلك في عام ١٨٥٨ . ومنذ ذلك التاريخ أصبح تسميم الشعب الصيني عملاً مباحاً يقره القانون والنظام ، إلى أن نهض الشعب الصيني نهضته الحديثة في أوائل هذا القرن ، وكان للإنجليز مصالح أخرى غير تجارة الأفيون ، فأصدرت حكومة الصين مرسوماً في سنة ١٩٠٦ يقضى بحظر تعاطي الأفيون أو زراعته أو الاتجار به . ولم يشأ الإنجليز أن يهتروا على هذا المرسوم خوفاً على مصالحهم العديدة التي أصبحت أعظم خطراً وأوفر ربحاً من الأفيون وتجارته وخوفاً مما يثيرونه من السخط لدى الشعوب والأمم التي أخذت ترسل البعثات إلى الصين وتطلع على ما يجري فيها من الشؤون ، ومن هذه الأمم من يخشى الإنجليز جانبهم مثل الأمريكيين .

هذه قصة حرب الأفيون التي ليس لها في الحروب مثيل — والتي لولا الوثائق الرسمية التي تشهد بصحة كل جزء منها ، لظن الناس أنها حديث خرافة ، أو أن في الحديث غلو كبيراً . والحقيقة أن حرب الأفيون — على بشاعتها ووحشتها وبعدها عن أبسط معاني الإنسانية — لا تعدو أن تكون حلقة في سلسلة من نظائرها من الأعمال الاستعمارية . ومن قبل حرب الأفيون بقرون انهمك الإنجليز في تجارة الرقيق ، فكانت سفنهم وعصابتهم تغير على سواحل أفريقية الغربية وتختطف السكان الآمنين بمجموعات مختلفة ، فيها الشيخ الهرم والعجوز الشمطاء والشبان والشابات والصبية والرضيع

والنساء الحوامل ، تشحن كلها في بطون السفن ، ثم تباع في أسواق
الأمريكتين كما تباع السلع . وقد عكف الانجليز على هذه التجارة
التي احتكروها عدة قرون وجمعوا منها الثروات الطائلة واستخدمت
هذه الثروات في بناء الأساطيل وتموين المصانع ، وبناء تلك
الامبراطورية المترامية الأطراف . وبعد أن شبعت البطون
البريطانية ، وأتخمت من تجارة الرقيق أخذ أصحابها ينادون بأنها
تجارة وحشية ، وعمل مناف للإنسانية ، وأخذوا يفخرون بأنهم
أول من ألغى الاتجار بالعبيد .

ومع ذلك فانهم انغمسوا في تجارة الأفيون في الوقت الذي
كانوا يحرمون فيه الاتجار في الرقيق ، لأن الضمير الاستعماري ضمير
مرن — قابل للتمدد في موضع والانكماش في موضع آخر —
تبعاً للظروف والأهواء ، والمتتبع لأحداثه لا يرى فرقاً كبيراً بين
طارفه وتليده وقديمه وجديده .

وبعد فان الاتجار في الأفيون أصبح محرماً في الصين — غير
أن العادات الشريرة متى انتشرت في قطر من الأقطار تعذر
استئصالها — وظلت شرورها قائمة زمناً طويلاً ، وستظل آثار
الجريمة باقية دهر أ طويلاً .

لقد أصبح الانجليز يتجنبون ذكر حرب الأفيون ما وسعهم
ذلك . ولن يجد المتصفح لدائرة المعارف البريطانية حرباً بهذا الاسم ،
ولا يحى ذكرها في هذا المجلد الضخم إلا بإيجاز عند الكلام على

تاريخ الصين ، ولا بد لمن يريد دراية هذه الحرب الاستعمارية العجيبة أن يرجع إلى مؤلفات الأمريكيين ^(١) أو غيرهم من الكتاب غير البريطانيين .

غير أن الإنجليز إذا حاولوا اليوم التهرب من ذكر حرب الأفيون لبشاعتها ، فإنهم لا يتهربون من المنافع التي اقتبسوها من هذه الحرب ، فقد أمكنهم أن يحصلوا على نصيب كبير من تجارة الصين بوجه عام ، وعلى احتكار كثير من مواردها ، وإذا كانوا فقدوا بعض ممتلكاتهم في شمال الصين ، فإنهم لا يزالون يعضون بالنواجذ على مستعمرة هونج كونج وهي على كل حال من أعظم الثمرات التي جناها البريطانيون من حرب الأفيون .

(١) راجع مثلا الكاتب الأمريكي Morse في كتابه عن العلاقات الدولية

الصين (١٩١٨) .

أمر تسار مثال الوحشية الاستعمار

الوحشية اصطلاح يستخدمه الكتاب للدلالة على أعمال أو جرائم فظيعة يرتكبها الإنسان . ومن الظلم للوحوش الضارية أن يستعار اسمها وصفاً لتلك الجرائم ، لأنها مهما بلغت ضراوتها من العنف والبطش ، عاجزة عن أن تضاهي ما يرتكبه الإنسان المتمدن المزود بأسلحة جهنمية للبطش بأخيه الإنسان . ومعلوم أن الضواري تفتك وتقتل بدافع الجوع أو العدوان ، أما الإنسان المتمدن فيقتل ويفتك من أجل السيطرة والتحكم في الإقليم وفي سكانه .

وهو قلما يلجأ إلى الأساليب الوحشية إلا إذا أنس في الشعب يقظة وانتباهاً للمطالبة بحقوقه ، ورأى هذا الوعي السياسي يهدد السلطان الاستعماري ويحاول التخلص من نيره وأغلاله . لذلك نرى هذه الوحشية قلما تظهر إلا في البلاد ذات الحضارة القديمة مثل الهند أو مصر ، لأن شعوب هذه البلاد جديرون أن يحسوا ثقل السلاسل والأغلال ، وأن تعاودهم ذكرى مجدهم القديم فتأبى عليهم عزتهم القومية طول الخضوع والإذعان . أما الشعوب التي لاتزال على الفطرة فقلما تدعو الحال إلى استخدام أفظع وسائل الوحشية لإذلالهم وإخضاعهم .

غير أن الأساليب الوحشية إذا كانت تستخدم فقط في ظروف

وأحوال خاصة ، فإن الالتجاء إليها بطريقة آلية — عندما تسنح تلك الظروف — دليل قاطع على أن الوحشية كامنة في الطبع الاستعماري ، ومتأصلة في نفوس الاستعماريين ، مثلها كمثل السم الكامن في فكي الأفعى لا يكشف عنه إلا الظروف التي تدعو إلى استخدامه . وإذا أردنا أن نعرف الطبع الاستعماري على حقيقته ، فليس يجدينا أن نلتمسه في أوقات الهدوء والاستقرار ، بل الواجب أن نبحث عنه في وقت الأزمات السياسية التي تنشأ بسبب نهضة وطنية ، يحاول أصحابها أن ينالوا حظاً — ولو ضئيلاً — من الحرية والاستقلال .

لهذا كانت حوادث البنجاب في الشمال الغربي من الهند مثالا حسناً لدراسة الطبع الاستعماري على حقيقته . ونظراً لأن الوحشية ظهرت بأكل مظاهرها في بلدة أمرتسار ، صار حديث هذه البلدة خير مثال يضربه الكتاب دليلاً على تلك الأساليب التي يلجأ إليها الاستعمار لإخضاع الشعوب وإذلالها .

جرت هذه الحوادث في ربيع سنة ١٩١٩ وأرادت حكومة الهند أن تخفي حديثها من العالم فكتمت أمرها فترة من الزمن ، غير أن رائحة الفظائع أبت إلا أن تفوح وتنتشر ، فتحدث بشأنها الناس في دهشة واستنكار ، واضطرت حكومة لندن لأن تؤلف لجنة تحقيق « ملكية » لبحث ماسموه « الاضطرابات » وما تخللها من الأحداث . وقد نشر تقرير هذه اللجنة في كتاب أزرق اعتمدنا

عليه كل الاعتماد في دراسة وقائع تلك الأزمة ، حتى يكون الكلام
مبنياً على الوثائق الرسمية ، مع أنها في الأرجح ، تبطن أكثر مما
تظهر ، وتخفي أكثر مما تعلن ، ولكن فيما أعلنته ما يكفي
لتحقيق ما نريد تحقيقه هنا ، وهو الكشف عن خصائص الطبع
الاستعماري .

كان المسرح الرئيسي لما سموه « الاضطرابات » في ربيع
سنة ١٩١٩ ، هو الإقليم الشمالى الشرقى من الهند ، وعلى الأخص
إقليم البنجاب . وقد بدأت هذه الاضطرابات في عاصمة الهند «دلهى»
في ٣٠ من مارس ثم تجددت في لاهور وأمر تسار في البنجاب
في ١٠ من أبريل وكذلك في أحمد آباد (وطن الزعيم غاندى) ،
وهي في شمال مديرية بومباى ، وكذلك حدثت اضطرابات في أماكن
عديدة أصغر حجماً ، ومعظمها في ولاية البنجاب .

ولاهور هي عاصمة البنجاب ، وقد أصبحت الآن داخلة في
دولة باكستان ، وسكانها وقت الحوادث التى نحن بصددتها يبلغون
ربع مليون من الأنفس ، ويزيدون على هذا الرقم كثيراً في الوقت
الحاضر .
أما أمر تسار فتقع شرقى لاهور بنحو ٢٠ ميلاً ، وسكانها

فى ذلك الوقت نحو ١٦٠,٠٠٠ نسمة . ويزدادون على هذا الرقم
كثيراً أيام الموالد والأسواق كما حدث فعلاً فى يوم ١٣ أبريل
المشئوم ، وهى الآن واقعة فى حدود دولة الهند برغم قربها من
باكستان . وهى فوق ذلك عاصمة السيخ ومركز تجارى ذو شأن .
وأمر تسار مدينة قديمة ، تحيط بها أسوار فى بعض المواضع ،
وأكثر شوارعها ضيقة ، وفيها عدد محدود من الميادين ، مثل ميدان
جلينولا باغ ، الذى اشتهر فى حوادث ذلك الوقت ، أما معظم
الإدارات ومراكز البوليس والجيش فواقعة خارج المدينة من
الناحية الشمالية ، فى حى مستقل ، كعادة البريطانيين فى حكم كثير
من المستعمرات (١) .

أما أحمد آباد فمدينة عظيمة ، إلى الشمال من بومباى بنحو مائتى
ميل ، وهى مركز كبير لصناعة الغزل والنسيج ، وبالقرب منها ولد
الزعيم غاندى ، وكانت أول مراكز الدعاية للمقاومة السلبية .
انتشرت الحركات الوطنية فى هذه البلاد فى غيرها من جهات
الهند ، وقوبلت من السلطات الحاكمة بالقمع الوحشى ، ولكن
مظاهر الوحشية كانت أشد فى البنجاب أكثر من سواها ، وكانت
فى أمر تسار أفظع منها فى أى بلد آخر ، ولذلك سنكتفى بها كمثال

(١) يلاحظ أن البريطانيين اتبعوا هذا النظام فى السودان أيضاً . فترى فى بلدة
الأبيض منطقة خاصة للحكام وكبار الموظفين والإدارات وهذه المنطقة منعزلة تماماً
عن المدينة يفصلها مساحة مزروعة شجراً ولاسكل من البلدة ومنطقة الحكومة
مورد خاص بالمياه مستقل .

للأساليب التي تتخذها السلطات الاستعمارية لإخماد الحركات الوطنية ،
وقد أعلنت الأحكام العرفية — أول ما أعلنت — في يوم ١٥
إبريل سنة ١٩١٩ . في كل من لاهور وأمرتسار ، ثم انتشرت بعد
ذلك في جهات أخرى ، واحتج البريطانيون بحرب الأفغان لإطالة
مدة الأحكام العرفية فترة طويلة من الزمن .

وترجع أسباب الحركة الوطنية التي ظهرت في صورة قوية في
ربيع سنة ١٩١٩ إلى عدة عوامل نلخصها فيما يلي :

١ — في الحرب العالمية الأولى استخدمت بريطانيا جميع
موارد الهند في المال والرجال ، فجندت مئات الآلاف من الرجال
وأنفقت مئات الملايين . وقد جندت البنجاب وحدها ٤٠٠.٠٠٠
مقاتل ، وهو رقم يزيد على المجندين من سائر جهات الهند ، ولم يكن
بد من أن تتورط بريطانيا — كعادتها في بذل الوعود — بإصلاحات
دستورية تعطى الهند حظاً وافراً من الحرية والاستقلال ، فاحتل
السكان بصبر وجلد ما فرضته الحرب من ضروب الشدة والحرمان ،
ثم انتهت الحرب بانتصار باهر لبريطانيا وحلفائها ، وانقضت الأشهر
دون أن يرى أبناء الهند أقل مظهر يشير إلى اعتزام البريطانيين أن
يفؤا بوعودهم .

٢ — أصدر البريطانيون أثناء الحرب قانوناً يسمى قانون
الدفاع عن الهند ، يمكن الحكومة من اتخاذ ما تراه من إجراء
لضمان الهدوء واستتباب النظام ، ولم تكتف بهذا بل سدت في شهر

فبراير سنة ١٩١٩ قانوناً جديداً ، سمي باسم مؤلفه قانون راولات Rowlatt Act ، وهو يعطى الحكام فى جميع الأقاليم سلطات واسعة للقبض والمصادرة وغيرهما من وسائل التعسف ، وقد انتقد سكان الهند هذا القانون نقداً مراراً ، واحتجوا على إصداره بعد انتهاء الحرب ، ولكن اعتراضاتهم ذهبت عبثاً .

٣ — وفى نفس الوقت تقريباً أرسل الزعيم غاندى نداءه المشهور ، داعياً إلى المقاومة السلبية والامتناع عن التعاون مع السلطات القائمة فى الهند واستجاب الناس لدعوته فى مختلف أنحاء الهند . ومع أن غاندى كان ينشد السلم ويقاوم كل مظاهر العنف ، حتى أن الفضل الأكبر يرجع إلى جهوده فى إخماد الفتنة فى أحمد آباد وغيرهما من الجهات — فإنه برغم ذلك ، عندما أراد السفر فى شهر مارس سنة ١٩١٩ إلى العاصمة دلهى ، منعت السلطات من السفر ، وألزمته أن يبقى فى ولاية بومباى . ولا شك أن هذا الحد من حرية غاندى كان له أسوأ الأثر عند مواطنيه وأنصاره ، ويرى الكثير أن هذا كان سبباً من أهم الأسباب فى إثارة الاضطرابات فى مختلف الجهات .

وحسبنا هنا أن نسردها حدث فى أمر تسار .

فقد كان فى هذه المدينة رجلان من أنصار غاندى هما الدكتوران كتشلو وساتيا پال ، أصدرت السلطة إليهما أمراً بالاختطاف فى أى مجتمع أو ناد ، وقد امتثلا لهذا الأمر ، ولكن

الإدارة في المدينة زعمت أنهما - وإن امتنعا عن الخطابة - يستقبلان في دارهما زواراً من شباب المدينة ، ويبحثان فيهم روح الثورة والتمرد . ولذلك صدر الأمر بإبعادهما إلى بلدة بعيدة ، ونفذ هذا الأمر في جنح الليل وأفاق أهل المدينة في صباح يوم ١٠ أبريل سنة ١٩١٩ فعلوا أن الزعيمين قد أبعدا عن المدينة ، فهاجت الخواطر لذلك وتألفت مظاهرة في أثناء النهار ، وأخذت تجوب المدينة ، ثم أجمع المتظاهرون على أن يذهبوا إلى دار نائب المفتش (وهو الحاكم الرسمي للمدينة) لكي يطلبوا منه الإفراج عن الزعيمين وردهما إلى بلدهما ، ومن المحقق أن المظاهرة كانت سلمية ولم يكن مع المتظاهرين أسلحة أو عصي .

كان لابد للمتظاهرين أن يتجهوا إلى شمال المدينة ، وأن يخرجوا من بابها الشمالي المسمى باب هول ، لكي يصلوا إلى منطقة الحكم ، وإلى ديوان نائب المفتش . فتصدى لهم على الجسر الذي يفصل تلك المنطقة عن المدينة قوة من رجال الشرطة وأرادت أن تردهم على أعقابهم ، وأطلقت أعيرة نارية في الهواء ، فهاج المتظاهرون ، واستهان رجال الشرطة بفصيلة من الجيش ، وأطلقت النيران ، وأصيب واحد من المتظاهرين في المصادمة الأولى ، ثم أصيب وقتل آخرون في المصادمات الثانية ، وانتهى الأمر بارتداد المتظاهرين إلى المدينة ، ولكنهم انقلبوا بعد ذلك إلى جموع ثائرة ، بعد أن كانوا يؤلفون مظاهرة سلمية . لم تكن الأحكام العرفية قد أعلنت بعد ، إذ لم تعلن فعلاً إلا في

يوم ١٥ أبريل ، ومع ذلك فإن السلطات المدنية بادرت بالالتجاء إلى الجيش ، وأسلمته قيادة الأمور في المدينة ، وطلبت منه أن يتولى المحافظة على الأمن والنظام ، وأن يكون وحده مسؤولاً عن ذلك ، وبذلك تخلت السلطات المدنية عن كل إشراف ، وأسلمت الأمور إلى هيئة تكاد ألا تعرف عن السكان وأعمالهم شيئاً ، وهكذا تسلم زمام الأمور قائد بريطاني اسمه (جنرال داير Dyer) بطل أمر تسار الشهير .

انقضى يوم ١١ ، ١٢ إبريل في مظاهرات صاحبة وخطب واحتجاجات ، ولم يكن بد من أن يتخللها بعض أعمال العنف ، بعد أن قتل من السكان من قتل ، وقد ذهب ضحية هذه الاضطرابات اثنان أو ثلاثة من البريطانيين ، وهو جمعت بعض المنشآت الحكومية ، وكان كثير من المظاهرات يبدأ باجتماع في بعض الميادين ، وعلى الأخص في ميدان جليسنولا باغ .

ثم جاء يوم ١٣ إبريل ، وهو يوم « مولد البيزخي » ، يؤم المدينة فيه أنواع من الناس ، من القرى والبلدان المجاورة لأمر تسار ، فتزدحم بهم المدينة ، ولا شك أن معظمهم يقصدها للبيع والشراء ، وقد يجتمعون في الميادين لمحض الصدقة ، دون أن تكون لديهم نية التظاهر أو أى نشاط سياسي .

ورأى القائد الجنرال داير أن يتخذ إجراء حاسماً في هذا اليوم بالذات ، لمنع المظاهرات ووقع الاضطرابات بمنتهى الشدة والعنف — إذا دعت الحال إلى ذلك — فنزل إلى المدينة على رأس قوة من الجنود ،

بين هنود وبريطانيين ، وأصدر منشوراً بمنع المواكب والمظاهرات
في أى جزء داخل المدينة أو خارجها . وكل اجتماع يتألف من
أربعة أشخاص أو أكثر يعد اجتماعاً غير مشروع ، ويفرق بقوة
السلاح إذا لزم الأمر .

وقد أشرف الجنرال نفسه على إذاعة هذا المنشور ، وكانت
طريقته في إذاعته أن يأمر بضرب الطبل في مكان ما ، فيجتمع بعض
الآهالى فيقرأ عليهم النص باللغة الوطنية ، كما وزعت نسخ قليلة
مطبوعة ، ولكن لم تعلق منه نسخ في أى مكان ، وكانت إذاعته
بالطريقة المذكورة مقصورة على جهات محدودة من المدينة ، بعيدة
عن الميادين ، التى جرت العادة أن تعقد فيها الاجتماعات ، وفي ميدان
جلينولا باغ لم تعلق نسخة في أى مكان بالميدان أو بالقرب منه .

وبعد أن أعلن القائد منشوره هذا بطريقته الخاصة ، عاد
في الساعة الواحدة بعد الظهر إلى مركز قيادته خارج المدينة ، حيث
أبلغه أعموانه أن المواطنين سيعقدون اجتماعاً في الساعة الرابعة
والنصف في ميدان جلينولا باغ ، وبديهي أن هذا الاجتماع قد
تقرر عقده في اليوم السابق ، قبل أن يصدر الجنرال منشوره بمنع
الاجتماعات ، ولا شك أن الاجتماع سيضم في مثل هذا اليوم مئات
أو آلاف من سكان القرى والبلدان المجاورة ، الذين لا يعرفون
شيئاً عن المنشور ، بل قد لا تكون لهم صلة بالحركة الوطنية .

غير أن القائد لم يعبأ بهذه الاعتبارات ، ورأى أن في هذا

الاجتماع تحدياً لأوامره ، ولا بد له أن يضرب ضربة قاسية تعطى السكان درساً في الطاعة لأوامره والإذعان لإرادته .

وعند ما اقتربت الساعة الرابعة أرسل القائد فرقا من الجنود في مختلف أنحاء المدينة للمحافظة على النظام ، واصطحب هو خمسين جندياً مزودين بالبنادق ، وبعض السيارات المصفحة المزودة بالمدافع الرشاشة ، وعلى رأس هذه القوة اتجه نحو ميدان جليانو لا باغ ، فرأى الناس محتشدين في الميدان . وقدر هو عددهم بنحو ٦٠٠٠ رجل ، وإن كان بعض الشهود قدر العدد بنحو ١٥٠٠٠ ، وكان في جانب من الميدان دكة وقف عليها شخص يلقى خطاباً وقد التف حوله الناس .

أراد القائد أن يدخل الميدان بسياراته المصفحة حتى يستطيع استخدام المدافع الرشاشة في الفتك بالمجتمعين ، غير أن الزقاق المؤدى إلى الميدان كان من الضيق ، بحيث اضطر القائد — لسبب خارج عن إرادته — أن ينزل السيارات والمدافع الرشاشة بعيداً ، وأن يكتفى بالخمسين جندياً ، المزودين بالبنادق وبنحو ١٦٨٠ طلقة . قسم القائد جنوده الخمسين إلى قسمين ، عن اليمين وعن الشمال عند مدخل الميدان ، حيث الأرض مرتفعة تساعد على تسديد المرمى والإصابة . ولعل المتظاهرين لم يحسوا قدوم القائد ، لأن باب الميدان الذي دخل منه كان يبعد عن مكان الاحتشاد بنحو مائة متر .

وكانت نية القائد أن يبادر بالفتك بالمجتمعين ، ولذلك لم يرسل
انذارا أو أمراً بالتفرق ، ولم يطلق طلقة واحدة في الهواء ، بل تولى
بنفسه توجيه الضرب إلى الجهات المزدحمة ، حتى يكون من المتعذر
إخطاء المرمى ، وحتى يمكن الانتفاع بجميع الطلقات في الفتك
بالجمهور المحتشد . لذلك لم يكذب يصل إلى الميدان حتى بدأ بإطلاق
النار ، وكان المجتمعون عزلاً من كل سلاح حتى العصي ، وكانت
منافذ الميدان ضيقة فتزاحم الناس للهرب منها . فكان القائد يوجه
النيران إليهم حيث يتكاثرون للخروج ، وقد اعترف أمام لجنة
التحقيق أن غرضه لم يكن تفريق الاجتماع ، بل إلقاء الخوف
والرعب في النفوس ، لكي يعلم الناس درساً لا ينسونه أبداً ، ولذلك
لم يكن يعنيه أن يفكر هل في المكان أناس أبرياء ؟ بل كل ما يعنيه
أن يشيع الخوف والذعر ، لذلك استمر يأمر بإطلاق النار حتى
نفدت آخر رصاصة لدى الجند ، وكان أسفه شديداً لأنه لم يستطع
الانتفاع بالمدافع الرشاشة حتى يكون الفتك أعظم والضحايا أكثر .

وبعد عشر دقائق انتهت المجزرة التي ذهب ضحيتها ٢٧٩ من
القتلى وثلاثة أمثالهم من الجرحى مما يدل على حسن تسديد الرماية ،
لأن كل طلقة تقريبا كانت لها ضحيتها الخاصة .

وترك القائد القتلى في الميدان ، والجرحى يعانون الآلام ، دون أن
يأمر باتخاذ أي إجراء لرفع جثث الأولين وإسعاف الآخرين . وخو طب
في ذلك فقال إن المستشفيات مفتوحة فليذهب إليها من يشاء .

هذه هي قصة مذبحه جليينو الاباغ ، كما رواها القائد نفسه للجنة التحقيق ، ليس فيها أقل إسراف أو حشو . فقد كانت نيته أن يلقي درساً على الجماهير ، لا في أمر تسار وحدها بل في سائر البنجاب ولولا قلة الجنود عنده وتعذر استخدام المدافع الرشاشة لكان الدرس أنكى وأبلغ . وقد اعترف بأن ما قام به هو أقل ما يمكن عمله لكي يحقق الغرض الذي رمى إليه .

ليس في تاريخ الجنرال داير أو في أخلاقه المعروفة ما يدل على أنه شخص شاذ ، بل هو أداة من أدوات الاستعمار التي تستخدم في تثبيت أقدام الحكم الأجنبي ولو أتاحت لغيره الظروف نفسها لما عملوا خلاف الذي قام به ذلك القائد .

وهناك أمر آخر قام به الجنرال نفسه ، قد يبدو غريباً لأول وهلة ، ولكنه متفق تماماً مع العقلية الاستعمارية التي كانت تتحكم في شؤون الهند .

وخلاصة هذا الأمر أن سيدة انجليزية تشتغل بالتبشير اسمها مس شروود ، كانت تسير في أحد الشوارع راكبة دراجة فمرت بها مظاهرة ولعلها أثارت حنق الجماهير ، فاعتدى عليها وخرت على الأرض في حالة تشبه الإغماء . وجاء بعد ذلك بعض الهنود فاحتملوها وأوصلوها إلى المستشفى حيث لقيت العناية اللازمة وعادت إليها العافية .

كان من الجائز أن يرى الجنرال أن هنوداً ارتكبوا إثماً ،

وهنوداً نحو آثار هذا الإثم ، فمن الممكن غض النظر عن الحادث .
غير أن عقل الجنرال الاستعماري رأى أنه لابد من القاء درس
خاص على الهنود . فأصدر أمراً أصبح يطلق عليه إسم « الأمر
بالزحف على اليدين والرجلين » . وخلاصة هذا الأمر أن كل هندي
يمر من الشارع الذي اعتدى فيه على مس شروود (وهو شارع
ضيق طويل) . يجب عليه أن يمشي على يديه ورجليه تم لم يكتف
بإصدار الأمر بل بث الجنود المسلحين على طول ذلك الشارع
لتنفيذ هذا الأمر العجيب .

وقد صدر هذا الأمر في يوم ١٩ ابريل ، بعد أن أعلنت
الأحكام العرفية بأربعة أيام .

ومع ذلك فإن هذا الأمر الذي يبدو غريباً لأول وهلة ،
لا يكاد يختلف عن الأساليب التي اتبعتها آخرون من البريطانيين
نحو الهنود . مثال ذلك أن ضابطاً مكلفاً بالإشراف على عمال النقل
في السكة الحديدية أصدر أمراً إلى العمال بأن يكون سلامهم أو
« التعظيم » الذي يقدمونه لرئيسهم البريطاني أن يخروا له ساجدين
ويضعوا وجوههم على الأرض ^(١) . وقد كان هؤلاء العمال مكلفين
بنقل شحنة من الجير فكان الجير يغطي وجوههم وأجسامهم فإذا
خر أحدهم ساجداً للرئيس البريطاني والعرق يتصبب من وجهه
ترك السجود أثراً أبيض على الأرض . فذهبت الشائعات بأن

(١) راجع ص ٨٥ من تقرير لجنة التحقيق الصادر في سنة ١٩٢٠ رقم ٦٨١ Cond

الإنجليز يكلفون العامل الهندي أن يرسم بأنفه رسوما بالجير على الأرض . فأنكر المشرف الإنجليزي هذه التهمة ، وقال إن كل ما في الأمر أنهم حين يأخذون « التعظيم » يضعون جباههم على الأرض ، تترك عليها آثاراً من الجير .

والظاهر أن لجنة التحقيق رأت هذا التفسير مقبولا ، وعلى الأخص لأن كثيراً من هؤلاء العمال كانوا من المسجونين الذين يسخرون لبعض الأعمال خارج السجن واتخاذهم « التعظيم » على هذه الطريقة ليس بالأمر المستغرب .

وبمناسبة الكلام عن السلام والتعظيم نذكر أن الأوامر صدرت لجميع الهنود بأنه نظراً إلى أن كثيراً من الهنود لم يعودوا يظهرون نحو الضباط والموظفين البريطانيين ما هو جدير بهم من الاحترام والتعظيم ، ونظراً لأنه لا بد من وضع حد لهذه الحالة التي تخل بما يجب لهؤلاء من واجبات التكريم ، فإننا أمرنا جميع السكان بأن يأخذوا التعظيم اللازم باليد كلما قابلوا أحد أولئك الضباط أو الموظفين وأن ينزلوا عن دراجاتهم أو الدواب التي يركبونها وأن يخفضوا المظلات التي يحملونها بأيديهم ، إذا كانت بأيديهم مظلات .

ومن أعمال التعسف التي تتصل بالتسليم والتعظيم ما اتخذ من اجراءات نحو طلاب المدارس والكلليات . فقد ثبت للحكام أن بعض التلاميذ الذين لا يتجاوز عددهم الخمسين ، قد اشتركوا في المظاهرات في بعض البلاد وعلى الأخص في لاهور . فصدر الأمر

بمعاينة جميع طلاب المدارس الذين تزيد سنهم على ١٤ سنة ، بأن يكلفوا الحضور أربع مرات كل يوم هجير شهر مايو إلى مقر الضابط المشرف على الإدارة العسكرية ، ثم يمرون في طابور منتظم أمام نقطة رفع فيها العلم البريطاني ، ويأخذوا له « التعظيم » اللازم . وقد دام هذا العقاب أسبوعاً كاملاً وكان التلاميذ يقطعون كل يوم ١٦ ميلاً في الحر الشديد لتأدية هذا الواجب ومن المضحك المبكى أنه إذا تغيب أحد التلاميذ لسبب من الأسباب كلف والده أو ولى أمره أن يحل محله (١) .

ويطول بنا الحديث إذا ذكرت جميع أعمال البغي والعنف والتعسف التي التجأت إليها السلطات البريطانية . خصوصاً بعد أن أتاح لهم إعلان الأحكام العرفية الفرصة لأن يطلقوا خيالهم العنان في استنباط مختلف وسائل التنكيل والتعذيب مع الإفراط في ذلك . إفراطاً لا تبرره الظروف ، وكثير من الأوامر التي صدرت في ظل تلك الأحكام ، لا يراد به إلا الإذلال للشعب عامة يستوى في ذلك المذنب والبريء . فقد صدرت أوامر بمصادرة سيارات الهنود بحيث لا يركب سيارة سوى البريطانيون ، كما أسرفت السلطات في توقيع عقوبة الجلد على الأبرياء . وأغرب مثل لذلك ما قام به الجنرال داير في أمر تسار إذ نصب « نقطة » للجلد على قارعة الطريق في المكان الذي سقطت فيه المبرشة مس شرورد . وأخذ يجلد الأبرياء الذين

(١) ص ١٢٤ من التقرير المذكور .

لم تكن لهم أقل صلة بالعدوان على تلك المباشرة ، بجلدهم جبهة وسط الطريق في وضوح النهار .

أن بعض الطباع تظل كامنة في النفس حتى تكشف عنها الظروف الملائمة لظهورها . فإذا أردنا أن نعرف طبيعة الخلق الاستعماري على حقيقته ، وما ينطوي عليه من الوحشية فإننا لن نعلم ذلك إلا إذا كشفت عنه حركة وطنية في ظروف كالتى رأيناها تتمثل في بلاد الهند في ربيع عام ١٩١٩ .

ولابد لنا أن نشير إلى ختام هذه القصة والإجراءات التى أوصت لجنة التحقيق الملكية باتخاذها ، فقد أوصت تلك اللجنة حكومة الهند باتباع بعض الجزاءات على الذين تجاوزوا الحد في تنفيذ السلطة التى خولت لهم .

وأوقعت حكومة الهند الجزاءات على عدد محدود من الأفراد . وهى لا تعدو اللوم والتوبيخ والنقل من مكان إلى آخر .

أما الجنرال داير فقد اضطرت حكومة الهند لأن توقع به أكبر العقوبات وهو العزل من منصبه فى الهند ، وذلك لأن حديث أمر تسار قد شاع وملاً صحف العالم ، فلم يكن هناك مندوحة عن اتخاذ هذا القرار الهائل .

ولكنه لم يكبد يعزل من منصبه حتى فتحت جريدة مورنج بوست — وهى من صحف لندن الاستعمارية التى كانت تصدر فى

ذلك الوقت — باب الاكتتاب لمساعدة القائد العظيم الذي أحرز هذا
النصر الباهر في ميدان جليينوالا باغ . فلم تمض أيام على فتح باب
التبرع حتى اكتتب الشعب البريطاني الوفي لابنه المخلص بمبلغ
خمسين ألفاً من الجنيهات . وهو مبلغ يعد في ذلك الوقت ثروة طائلة
فإذا كانت الحكومة البريطانية قد أنكرت خدمات هذا البطل
الوفى ، فإن شعب بريطانيا لن ينسى له هذه الخدمات .

الاستعمار الصهيوني

ماضيه وحاضره ومستقبله

إن الاستعمار الصهيوني — الذي تمكن أخيراً من إقامة دولة صهيونية في قلب الوطن العربي — هو نوع جديد من الاستعمار يختلف كل الاختلاف عن الأنواع المألوفة المعروفة . فقد تعودنا أن يقوم الاستعمار بواسطة دولة قوية تسندها الجيوش والأساطيل . أما الصهيونيون فقد اعتمدوا أولاً على جيوش وأساطيل غيرهم قبل أن يكون لهم قوة تستحق الذكر . وأمكنهم أن يستخدموا الاستعمار البريطاني وأن يسخروه لقضاء مآربهم ، حتى إذا حصلوا على أقصى مرادهم منه تحولوا إلى تسخير النفوذ الأمريكي واستغلاله فنجحوا إلى أبعد غايات النجاح .

وقد أصبح الاستعمار الصهيوني أكبر خطر يتهدد الدول العربية ، لذلك كان جديراً بنا أن ننعم الفكر في أمره وأن ندرسه ونطيل دراسته .

من أول الصيحات الصهيونية التي سجلها التاريخ كتاب أرسله يهودى فرنسى في عام ١٧٩٨ (وقت حملة بونابرت على الشرق الأوسط) ناشد فيه أبناء دينه أن يؤلفوا مجلساً أعلى مقره باريس ، تمثل فيه فروع الطائفة في جميع أنحاء العالم ، على أن يرفع هذا المجلس طلباً إلى الحكومة الفرنسية بإرجاع جميع اليهود إلى سماء (وطنهم) ثم وصف هذا الوطن بالعبارة الآتية :

« هذا القطر الذي نريد أن نحتله يشتمل على مصر السفلى (الوجه البحرى) ويمتد شرقاً إلى الجهات المتاخمة ، وينتهى بخط يمتد من بلدة عكا إلى البحر الميت . وموقع هذا القطر أنفع المواقع فى العالم

وسيمكننا من السيطرة على ملاحه البحر الأحمر ، وعلى تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقيا الشرقية والجنوبية ، وكذلك سيسهل لنا تجارة إيران وآسيا ، نظراً لقربه من مدينتى دمشق وحلب ، كما يسهل الاتصال بواسطة البحر الأبيض المتوسط بالبلاد والممالك الأوروبية . وهكذا تكون بلادنا بفضل موقعها الممتاز فى قلب العالم . المستودع الأكبر للمنتجات العالمية الثمينة الوفيرة . »

ثم يوضح الكاتب بعد ذلك المزايا التى تجنيها حكومة فرنسا من احتلال اليهود لذلك القطر والثمن الذى يجب أن يدفع للباب العالى فى مقابل الاستيلاء عليه ^(١) .

هذه الصيحة المبكرة لم يترتب عليها إجراء عملى وإنما المهم فى هذا النداء تحديده للقطر الذى يريده هذا الصهيونى المتقدم ، وأنه لا يشتمل على فلسطين وحدها بل على النصف الشمالى من القطر المصرى أيضاً . من المهم أن نذكر ذلك لأن أكثر الصهيونيين فى وقتنا هذا لا يشيرون إلى مصر وإن كانت هنالك

(١) راجع النص الأصل فى صفحة ٣٠ من كتاب المستر باربور

عناصر صهيونية متطرفة لا تزال تصف الوطن الصهيوني بأنه من وادى النيل إلى وادى الفرات .

بدأت الصهيونية أعمالها المنظمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، واتجهت في جهودها إلى وجهتين .

الأولى الجماعة التي كانت تحركها نزعة دينية ثقافية وغرضها أن ترى في فلسطين مركزاً محدوداً تقام فيه الشعائر الدينية اليهودية بكامل الحرية وتحى فيه اللغة العبرية وتنشأ فيه مؤسسات ثقافية واجتماعية يهودية مع تمتع اليهود بكافة الحقوق التي لجميع سكان فلسطين دون أن تكون لهم أية ميزة سياسية أو أية نزعة استقلالية

أما الطائفة الثانية التي لم تلبث أن طغت على الأولى فهي الصهيونية السياسية التي ترمى إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين يحشد فيها المهاجرون من الأقطار الأوروبية التي يكثر فيها اليهود مثل روسيا وبولندا . وتجمع لها الأموال من سراًة اليهود في جميع أنحاء العالم . هذه الطائفة التي أخذ أمرها يستفحل في نهاية القرن الماضي لم تلبث أن نظمت تنظيماً دقيقاً ، وأصبح لها هيئات في كثير من الأقطار الأوروبية والأمريكية ومؤتمر صهيوني عام يعقد مرة في كل عامين . وقد عقد لأول مرة في مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧ .

في ذلك الوقت كان بعض الأغنياء من اليهود قد ساعد فعلاً على إنشاء عدد صغير من المستعمرات الصهيونية التي تشغل

بالزراعة ولكن مثل هذه المستعمرات لم تكن تطفئ غليل هذه الصهيونية . ولذلك تقدم رؤساؤها إلى السلطان عبد الحميد يلتمسون منه أن يسمح بإنشاء « جمهورية » يهودية في فلسطين في مقابل إعانات مالية ضخمة . فرفض السلطان فأعادوا الكرة فأعاد الرفض ولم يكتف بالرفض بل أمر أن يسمح لجماعات صغيرة من اليهود إذا شاءت أن تنزل في أية بقعة من الدولة العثمانية ما عدا فلسطين .

أمام هذا الرفض الحازم حاول الصهليون أن يسمح لهم باحتلال قبرص فرفضت الحكومة البريطانية طلبهم ثم طلبوا أن يسمح لهم باحتلال منطقة العريش من أرض مصر — وهي على كل حال متاخمة لفلسطين — فأذنت لهم السلطات المختصة بأن يرسلوا بعثة صهيونية إلى العريش للبحث والتنقيب ، فانهت تلك البعثة إلى أن الإقليم صالح للاستعمار على شرط أن يسمح لهم بجلب الماء من نهر النيل ، فأبى اللورد كرومر الموافقة على هذا المشروع فأهمل . من المهم أن نذكر هذا الحادث التاريخي لكي ندرك أن أرض مصر لم تكن في يوم من الأيام خارجة عن نطاق التفكير الصهيوني وأن حكومة مصر قد بلغ بها التساهل إلى حد السماح لبعثة صهيونية أن ترتاد العريش وجزيرة سيناء .

اكتفى الصهليون في السنوات التالية بتقوية المستعمرات التي سبق إنشاؤها في فلسطين وبتوحيد صفوف أتباعهم في مختلف

الأقطار وترقب أول فرصة سانحة لتحقيق أطماعهم . وقد أتاحت لهم هذه الفرصة أثناء الحرب العالمية الأولى . ومن الممكن أن نعتبر هذه الحرب بمثابة نهاية المرحلة الأولى من الاستعمار الصهيوني . ولذلك يحسن بنا أن نقف قليلاً لكي ننظر إلى ما تم في هذه المرحلة البدائية .

أصبح عدد الصهيونيين في فلسطين ٩٠,٠٠٠ . ومجموع السكان ٨٠٠,٠٠٠ أى أنهم زادوا على عشر السكان وكانوا يؤلفون جماعة منظمة ذات نزعة انفصالية تسودها عاطفة التعصب القومي ، وقد وصفهم حاكم يافا التركي بأنهم يحاولون أن ينفصلوا عن سائر السكان ولا يحتكمون إلا إلى المحاكم اليهودية ، ويستخدمون أوراقاً مالية خاصة بهم ولهم شارات تدل على الاستقلال السياسى أخصها العلم ذو اللون الأزرق والأبيض ويمعنون في شراء الأرض من العرب وفي إحلال العمال اليهود محل العرب ويزدرون السلطة العثمانية واللغة التركية ويذكون في مدارسهم روح التعصب لليهود ضد الأتراك ، وقد جعلوا من مستعمراتهم مراكز مستقلة لها محاكمها وقوات الدفاع الخاصة بها^(١) .

من أجل ذلك اضطر جمال باشا إلى استبعاد عدد من أكثرهم تعصباً وتطرفاً واضطروهم إلى الانتقال إلى جهات أخرى من الدولة

(١) راجع كتاب باربور ص ٥٣ .

العثمانية . ومع هذا فإن الإجراءات التي اتخذها لم تكن صارمة أو قاسية بفضل تدخل ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية .

وجاءت الحرب العالمية الأولى فرأت الهيئة الصهيونية العالمية أن تتبع سياسة الحياد الرسمي ، ولكن فروعها في ألمانيا من جهة وفي بريطانيا وأمريكا من جهة أخرى لم تكف عن السعي والجد فلم تلق توفيقاً يستحق الذكر في الأولى ، ولكنها نجحت نجاحاً عظيماً في بريطانيا وأراد الصهليون في بريطانيا أن يحققوا برنامجهم الكامل بإنشاء دولة في فلسطين ، وعارضهم معارضة شديدة يهود إنجلترا فترتب على ذلك تلك السياسة الوسط التي تضمنها وعد بلفور والتي قالت بأن بريطانيا « تنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين على ألا يكون في هذا ما يمس حقوق اليهود في سائر الأقطار أو حقوق الجماعات غير اليهودية التي تعيش في الأرض المقدسة . » . وقد اندفعت بريطانيا في هذه السياسة لأنها وجدت فيها وسيلة لتثبيت قدمها في أرض تزيد في مقدرتها على الدفاع عن مواصلاتها الإمبراطورية عامة وعن قناة السويس بوجه خاص عدا ما تجنيه من المكانة السامية والمنزلة الرفيعة إذ تصبح هي الدولة المهيمنة على البلاد المقدسة التي نشأ فيها الدين المسيحي بعد أن حاول الصليبيون عبثاً انتزاعها من أيدي سكانها .

قبل الصهليون — مؤقتاً — تصرح بلفور وبذلوا مجهوداً جباراً حتى صيغت وثيقة الانتداب على فلسطين صيغة تساعد

على تحقيق أغراضهم وتذهب في تفسير ذلك التصريح إلى أبعد مدى يلائمهم ، فضمنت لهم أن تتخذ جميع الإجراءات اللازمة لتيسير الهجرة وتشجيعها وتمكين المهاجرين من شراء الأرض واستثمارها واحتلالها بواسطة جماعات متراسة متلاصقة ومن إقامة المشروعات لاستغلال الموارد الطبيعية في مختلف أنحاء . وفوق هذا كله اعترفت وثيقة الانتداب بحق الهيئات الصهيونية في أن تنشئ وكالة يهودية لكي « تتعاون » مع حكومة فلسطين من أجل تنفيذ جميع شروط الانتداب . فلم تلبث هذه الوكالة أن أضحت حكومة داخل الحكومة .

وبعد أن تم للصهيونيين هذا النصر الباهر في وثيقة الانتداب أحرزوا نصراً آخر لا يقل خطراً بأن اختارت حكومة الانتداب يهودياً صمياً وصهيونياً عريقاً وهو السير هربرت صموئيل لكي يكون الحاكم الأول على فلسطين فاستطاع الاستعمار الصهيوني في هذه المرحلة الثانية — في الفترة بين الحربين العالميتين — أن يثبت أركانه على قواعد متينة وأسس ضخمة . وأن يزيد عدد المستعمرين حتى ارتقى من نحو ٥٠.٠٠٠ في عام ١٩٢٠ حتى بلغ ٦٦٠.٠٠٠ في عام ١٩٤٠ . وازداد العرب في أثناء هذه الفترة زيادة طبيعية حتى صار عددهم يقارب المليون .

ولكن هذه المقارنة العددية لا تحمل صورة صحيحة عن الاستعمار الصهيوني في هذه الفترة ، فإن اليهود لم يرضوا بمجرد زيادة

العدد بل أنشأوا مدنا منها تل أبيب أكبر مدن فلسطين . وأصبحت لهم الكثرة العددية في بيت المقدس واستولوا على أراض واسعة خصبة مثل مرج ابن عامر وأخرجوا المزارعين والفلاحين العرب منها ، وأنشأوا في جوار حيفا منطقة صناعية هائلة غمرت بلاد الشرق الأوسط بمنتجاتها المتنوعة ، وفي هذه المصانع لا يستخدم غير عمال صهيونيين . وأمكنهم كذلك أن يحصلوا على حق احتكار كثير من المنافع العامة مثل الكهرباء ، كما أصبحوا هم العملاء لجميع الشركات الأجنبية التي ترسل منتجاتها إلى فلسطين وبعض جهات الشرق الأوسط وبذلك صارت المؤسسات الصهيونية هي الأداة الرئيسية للتجارة في فلسطين وما يجاورها من الأقطار .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل استطاع الصهيونيون أن يحملوا حكومة فلسطين على السماح لهم بأن يتسلحوا من أجل « الدفاع عن النفس » . فلم يكتف الصهيونيون بهذا الحق بل أخذوا يستوردون الذخائر خفية ولم يكتشف هذا الأمر إلا بطريق المصادفة . ففي منتصف أكتوبر سنة ١٩٣٥ وصلت من الخارج صناديق من « الأسمنت » إلى تل أبيب انكسر واحد منها فتبين لعمال الجمارك أن صناديق الأسمنت تشتمل على رسالة من المسدسات الأوتوماتيكية ومئات الآلاف من الرصاصات وأظهر التحقيق فيما بعد أن هذه لم تكن سوى دفعة واحدة سبقتها وهذه دفعات عديدة الدفقات لم تستكشف ولم تصدر .

ومن المهم أن يدرك القارئ أن تهريب الأسلحة هذا يرجع إلى ما قبل عام ١٩٣٥. وفي الوقت الذي كان النازيون يضطهدون اليهود لم يحاول الصهيونيون مقاومة النازيين بل وجهوا كل جهودهم نحو تسليح وتدريب الشباب الصهيوني من أجل الإستيلاء على فلسطين.

ورأت بريطانيا — بعد لآي — أن الاستعمار الصهيوني يوشك أن يصبح خطراً عليها ، وبدلاً من أن تكون السياسة الصهيونية وسيلة لتثبيت أقدام بريطانيا في فلسطين رأت نفسها تتخذ أداة لتنفيذ الأطماع الصهيونية وأدركت أن الخطر على النفوذ البريطاني لا يقل عن الخطر الذي يهدد الشعب العربي. ولذلك سنت سياسة جديدة ضمنها «الكتاب الأبيض» الذي صدر في ربيع عام ١٩٣٩ والذي تقرر بمقتضاه الحد من الهجرة الصهيونية ووقف بيع الأراضي لليهود في جزء كبير من فلسطين واتخاذ بعض الإجراءات نحو إعداد البلاد للحكم الذاتي. وقد نفذت شروط هذا الكتاب في أثناء الحرب ثم خولفت صراحة بعد انتهائها مباشرة.

وهكذا تنتهي المرحلة الثانية من الاستعمار الصهيوني وتبدأ المرحلة الثالثة. فقد رأى الصهيونيون أن الحرب العالمية الثانية ستتيح لهم فرصة عظيمة لتحقيق أطماعهم فرسموا لذلك سياسة صريحة استغلوا بها ظروف الحرب استغلالاً قوياً. فأقبلوا على التطوع آلافاً مؤلفة ، لا حباً في الحلفاء ولا رغبة في هزيمة ألمانيا

بل لكي يكتسبوا المران والخبرة والأسلحة والذخائر . للرحلة الثالثة من جهودهم الاستعمارية . لم يشترك هؤلاء اليهود في حروب تستحق الذكر على الرغم من كل ما يذيعونه وينشرونه من الأكاذيب ، ولكنهم من غير شك اكتسبوا دراية فنية عظيمة — سواء في ذلك رجالهم ونسائهم — أتاحت لهم أعظم جيش مسلح مدرب في الشرق الأوسط كله . وقد أمكنهم أن يصنعوا الذخائر والأسلحة الحربية إلى جانب المهربات الكثيرة التي كانت ترد إليهم من أمريكا وأوربا ، وساعدتهم على التهريب أن كان لهم وهم أعضاء في الجيش البريطاني كامل الحرية في أن ينتقلوا بسيارات ذلك الجيش عبر الحدود دون تفتيش .

وأمكن للصهيونيين في الوقت نفسه أن يجمعوا ثروة هائلة أكثرها من الممولين اليهود في أمريكا وبعضها مع الأسف من الاتجار في البلاد العربية نفسها . وأخذ دعائهم يبذلون همه فائقة للتأثير في نواب أمريكا وشيوخها وساستها وفي بعض الساسة البريطانيين أنفسهم . وجعلوا ينادون صراحة بأنهم لا يريدون مجرد وطن قومي ، بل دولة يهودية في فلسطين . وأنهم سيدخلونها عنوة إذا لم يسمح لهم بأن يدخلوها بالوسائل القانونية . بل لقد ذهب دعائهم إلى أبعد من هذا بأن أعلنوا أن من برنامجهم أن يجلبوا العرب جميعاً عن فلسطين في مقابل تعويض مالي ، حتى يمكن إنشاء جمهورية صهيونية خالية من كل عنصر غير صهيوني .

وقد رأى الصهيونيون حتى في أثناء الحرب العالمية الأخيرة أن بريطانيا لن تمكنهم من التوسع الاستعماري في فلسطين إلى أبعد من المدى الذي وصلوا إليه ، لأن ازدياد النفوذ الصهيوني أضعف النفوذ البريطاني أو بعبارة أخرى : أن الاستعمار الصهيوني لفلسطين . أصبح خطراً على الاستعمار البريطاني في هذا الركن الخطير من العالم .

وقد سبق لنا في الفصل الثالث أن أوضحنا كيف خلقت بريطانيا المشكلة الصهيونية خلقاً لكي تستطيع أن تقيم نفسها حامية لمصالح اليهود ضد عدوان العرب ولمصالح العرب ضد عدوان اليهود فلما أصبح النفوذ الصهيوني من القوة بحيث بات يهزأ بالسلطات البريطانية في فلسطين . بذل الانجليز أثناء الحرب العالمية بعض الجهود للحد من العدوان الصهيوني . غير أن الزمام لم يلبث أن أفلت من أيدي البريطانيين ، وأخذ الصهيونيون يجاهرون بعداء الدولة المهيمنة على شئون فلسطين وبلغت بهم الجرأة أن أرسلوا من فلسطين إلى مصر ثلاثة من رجالهم في أثناء الحرب العالمية الثانية ، فنزلوا القاهرة وقتلوا وزيراً بريطانياً عظيماً وهو اللورد موين في عقر داره في رابعة النهار .

وقد كشفت هذه الجريمة عن عجز البريطانيين وضعفهم أمام العدوان الصهيوني ، فإنهم لم يظهروا تلك الغضب العنيفة التي أظهروها مثلاً في مقتل السردار سنة ١٩٢٤ ، وقد قامت السلطات المصرية

بمحاكمة الجناة وإعدامهم ، أما السلطات البريطانية في فلسطين فلم تحرك ساكناً .

وظهر عجز البريطانيين واستخذاؤهم أمام العدوان الصهيوني في صورة أوضح بعد انتهاء الحرب العالمية مباشرة ، فأخذ الصهيوينيون يغيرون على المعسكرات البريطانية وثكنات الشرطة ويختطفون منها الأسلحة ، وجعلوا ينسفون الدور والمكاتب البريطانية ، ويفتكون بالأرواح جهرة ، وكانوا يقبضون على الجنود والضباط البريطانيين ويجلدونهم بالسياط في وضوح النهار ، وكان لهم ثأر عند أحد الضباط البريطانيين فتعقبوه إلى بلدته في بريطانيا وقتلوا به هناك .

وقد رسم الصهيوينيون خطتهم للاستيلاء على فلسطين فقسموها إلى مرحلتين :

الأولى — إجلاء البريطانيين عن فلسطين ، ثم إجلاء العرب عنها بعد ذلك .

ولم يبدأوا المرحلة الثانية إلا بعد أن أتموا المرحلة الأولى ، مع إدراكهم التام بأن العرب هم في الحقيقة العدو الأول .

وقد كشفت الحرب العالمية الثانية عن ضعف الإنجليز في الميدان الدولي ، فأصبحوا دولة من المرتبة الثانية ، تسير في ركاب الولايات المتحدة الأمريكية وتعتمد عليها كل الاعتماد . ولعل الصهيوينيين كانوا يتوقعون ذلك ، فأعدوا للأمر عدته . وفي

أمريكا ستة ملايين من اليهود لهم نفوذ واسع وسلطان كبير .
فصناعة السينما كلها في أيديهم . وكثير من شركات الإذاعة والصحافة
خاضعة لهم . وهناك صناعات أخرى عديدة مثل صناعة ملابس
السيدات يسيطر عليها اليهود سيطرة تامة . ولذلك كان لهم في أمريكا
نفوذ أكبر مما يبدو من نسبتهم العددية لجميع سكان الولايات المتحدة .
فكانت لديهم من وسائل الإغراء ما مكنهم من تسخير كثير من
رجال الدولة ، وعلى الأخص رجال البيت الأبيض (أى رئاسة
الجمهورية) لقضاء شهواتهم وتحقيق مآربهم .

وفي أمريكا يتمتع الرئيس الأعلى للدولة بسلطة واسعة توشك
أن تكون دكتاتورية دستورية ، وعلى الأخص في الشؤون
الخارجية . وقد وجد يهود أمريكا في الرئيس الأسبق ترومان أداة
طبعة ، لا يرد لهم طلباً ويشكل سياسته طبقاً لما يمليه دعائهم .

وكان البريطانيون بعد الحرب في أزمة مالية شديدة وانقسموا
من أمريكا قرضاً يقرب من أربعة مليارات من الدولارات ،
فمنحوا القرض على شرط أن تكون سياستهم في فلسطين متجهة
إلى تحقيق رغبات الصهيونيين . واشتد الضغط على البريطانيين
حتى اضطروا لأن يعلنوا في أول سنة ١٩٤٧ عزمهم على الجلاء
عن فلسطين في منتصف شهر مايو سنة ١٩٤٨ . وبذلك تم
للصهيونيين تحقيق غرضهم الأول ، ولم يبق إلا الغرض الثانى
وهو إخراج العرب من فلسطين .

كان واجب الدول العربية أن تبادر برسم خطتها عندما أعلنت بريطانيا عزمها على الجلاء عن فلسطين . ومن بواعث الأسف أن كثيراً من العرب لم ينظروا نظرة جدية إلى وعد بريطانيا بالجلاء ظناً منهم أن هذا لن يعدو أن يكون من قبيل وعدهم بالجلاء عن مصر . وفاتهم أن هنالك فرقاً كبيراً بين الحالتين ، لأن بريطانيا إذا أخلفت وعدها مع مصر أو حتى مع الصهيونيين لا تستطيع أن تخلف وعداً قطعتة أمام الأمريكيين .

ومهما يكن من أمر . فإن الدول العربية لم تبدأ استعدادها لحرب فلسطين إلا عشية جلاء الانجليز عنها . أما الصهيونيون فقد استعدوا لذلك استعداداً طويلاً ، فألفوا جيشهم الرئيسى المسمى « هجانا » وجيش الصاعقة المسمى « أرجون » . وبلغت قوتهم مجتمعة قرابة مائة ألف جندي وجاءتهم الامدادات من مختلف الجهات في أوروبا وأمريكا .

ولسنا هنا فى مقام سرد حوادث الحروب الفلسطينية ، وحسبنا أن نذكر أن الصهيونيين أمكنهم أن يؤسسوا دولة سموها « إسرائيل » ، وأخذوا يشجعون المهاجرة إليها من جميع الأقطار ويجلبون لها المال بجميع الوسائل ، ويبدون همة فائقة فى توطيد أركانها وتدعيم بنيانها ، ويسيطرون على خطة محكمة وسياسة واضحة الأهداف صورة لا نرى لها نظيراً فى البلاد العربية المجاورة ، حيث يسود الشقاق والخلاف وتتعدد النزعات والأهواء .

وهكذا حقق الاستعمار الصهيوني هدفه الذي رعى إليه ،
وأمكنه أن يبلغ مأربه الذي يتمثل في المرحلة الثالثة وهي إنشاء
دولة صهيونية في فلسطين . فهل يقف الاستعمار الصهيوني عند
هذا الحد ، أم هنالك مرحلة رابعة ؟

إن تاريخ الصهيونية كفيل بأن يوضح لكل ذى عقل أنها لن
تقف عند حد . فإن التوراة أشارت إلى وطن يمتد من الفرات
إلى النيل وهيئات أن تقعد الصهيونية عن السعى لتحقيق هذا
الهدف . ولا شك أن العالم العربي لا يزال مهدداً بكارثة هائلة ليس
احتلال الانجليز لقناة السويس بجانبها إلا شيئاً تافهاً . فإن الاستعمار
الصهيوني لا يهدف إلى مجرد التسلط على السكان ، بل يرمى إلى
طردهم واغتصاب بلادهم وكثيراً ما نرى في كتابات الصهيونيين
وأتباعهم ، أن العرب أصلهم من الصحراء ، فيجب أن يعودوا إلى
الصحراء ، وهذه الفرية لا يفتأون عن ترديدها .

أما زعم الصهيونيين بأنهم أصحاب حق في فلسطين من سلالة
بنى إسرائيل فسنوضح في الفصل التالى أن هذا الزعم لا يقوم
على أساس .

الصهيونية في نظر العالم

من أكبر المفتريات على الحقيقة والعلم ، التي أشاعها الصهيونيون وضلّوا بها الحقول ، زعمهم أن اليهود في جميع أنحاء العالم من أصل فلسطيني وأنهم حين يطالبون بفلسطين فانما يطالبون ببلادهم التي نشأوا فيها ثم أخرجوا منها .

وهذا الزعم لا يمكن تفنيده إلا بالوسائل العلمية التي تبحث في أحوال الشعوب والأجناس وتاريخها . ونظراً لأن الاستعمار الصهيوني يحاول تبرير عدوانه الشنيع على الشعب العربي بهذه الخرافة التي لا نصيب لها من الصحة ، فإن من الضروري تفنيدها بالدليل العلمي الواضح . ولذلك لم يكن بد من تخصيص فصل لمعالجة هذا الموضوع .

إن التعصب الديني في القارة الأوروبية جعل سكانها ينفرون من أتباع الدين اليهودي ودفعهم إلى التوهم بأن اليهود عنصر غريب عنهم دخيل في بلادهم . وساعد على ذلك ما اضطر اليه اليهود من العزلة الاجتماعية والانفراد بأحياء خاصة بهم ، وامتناع المعاشرة والاختلاط بينهم وبين أبناء وطنهم من أتباع الدين المسيحي . ومن السهل في مثل هذه الأحوال أن يشتد النفور بين الطائفتين حتى تصبح كل منهما وقد وقر في نفسها أن الأخرى غريبة عنها ، وأنها لا تمت إليها بصلة من قريب أو بعيد .

ولا يكاد الناس أن يجدوا شبهاً — حقيقياً كان أو وهمياً — بين أعمال يأتينا اليهود اليوم وأعمال تنسب إلى بعض أفراد من بنى إسرائيل في الزمن القديم ، حتى يقول قائلهم ان اليهود هم لم يتغيروا ولم يتبدلوا ، وأنهم لا يزالون اليوم كما كانوا منذ أربعين قرناً .

وهكذا انتشرت بين الناس تلك الخرافة الشائعة بأن جميع اليهود في جميع أنحاء العالم هم من نسل بنى إسرائيل ، وأنهم لذلك غرباء في أوروبا وأنهم شعب لا وطن له اليوم . والحقيقة التي لا سبيل إلى نكرانها هي أن يهود أوروبا من أصل أوروبي صميم ، وأنهم اعتنقوا الدين اليهودي على أيدي مبشرين من اليهود في القرن الثالث قبل الميلاد ، وفيما تلاه من القرون . وقد كانت لهم مستعمرة واسعة في حوض نهر الرين الشمالى والأوسط ، ومن هناك انتشروا في وسط أوروبا وفي شرقها وغربها .

والذين يزعمون أن اليهود جميعاً من سلالة إسرائيل قلبا يقفون لحظة واحدة لكي يذكروا أنه لو أن هذا الوهم صحيح ، لكان اليهود في جميع أنحاء العالم متشابهين في السحنة والمنظر والتقاطيع ، لأن قانون الوراثة يقضى حتماً بأن الفروع تشبه الأصل وتتشابه فيما بينها تشابهاً شديداً . ولو نظرنا إلى اليهود في مختلف أقطار العالم اليوم لوجدنا بينهم الشقر ذوى العيون الزرقاء والشعر الأصفر . ورأينا بينهم السمرة ذوى الشعر المجعد في هضبة الحبشة . والسود في جنوب الهند والصفر المغول في الصين ورأينا بينهم الطوال القامة

والقصار وذوى الرؤوس الطويلة والعريضة . ويوشك ألا يكون هناك اختلافات بين السلالات البشرية أكبر مما نجده بين الجماعات اليهودية فى مختلف القارات . وليس مما يقبله العقل أن تكون هذه الطوائف كلها من سلالة جنسية واحدة .

فاليهود إذن ينتمون إلى عدد كبير من السلالات ، وهم يشبهون الجماعات التى يعيشون وسطها ومن أصدق الأدلة على ذلك ما حدث للألمان اليهود فى ظل الحكم النازى . فقد استطاع كثير منهم أن يثبتوا بواسطة وثائق أتقنوا صنعها وتزييفها ، أنهم آريون من أصل جرمانى صميم . فاقتنعت السلطات الألمانية بأنهم آريون حقاً ، وبجلبت أسماءهم بأنهم آريون لم تجر فى عروقهم قطرة من أى دم آخر سوى الدم الآرى — أيا كان هذا الدم الآرى — ولو كان فى شكلهم أو مظهرهم شىء يدل على أنهم من عنصر دخيل لما صعب على أولى الأمر من النازيين أن يهتدوا إلى الحقيقة .

من أول الأشياء التى قالها الصهيونيون لأعضاء لجنة التحقيق الإنجليزية الأمريكية أنهم لا يذهبون إلى فلسطين كما يذهب المهاجر بل أن مثلهم كمثّل الرجل الذى يريد أن يعود إلى داره بعد أن غاب عنها فترة من الزمن . طالت أو قصرت ، ومعنى هذا أنهم جميعاً من نسل أولئك الفلسطينيين القدماء الذين اضطهدتهم الدولة الرومانية وأرغمت كثيراً منهم على الهجرة إلى بلاد أخرى . ومن الغريب أن هذا الزعم طالما وجد آذاناً صاغية .

وأكثر الكتاب الذين حاولوا الرد على الصهيونيين اكتفوا بأن قالوا إن هؤلاء لاحق لهم في فلسطين لأن القطر لم يكن في وقت من الأوقات ملكا خاصا لليهود ولأن السيادة اليهودية في أيام داود وسليمان وخلفائهما لم تدم سوى فترة قصيرة من الزمن . أما سيادة العرب فقد دامت أكثر من عشرين قرنا ، وإن بني إسرائيل قد اغتصبوا السلطة من الكنعانيين وهم شعب عربي فهم لذلك دخلاء لا ينتمون إلى بلاد الشام . إلى غير ذلك من الحجج المعروفة .

وهذه حجج لها خطرها وقوتها ، ولكنها تغفل الناحية الخطيرة في الموضوع كله ، وهي أن الصهيونيين — وأكثرهم من يهود أوروبا — ليسوا من أهل فلسطين مطلقاً بل من أصل جرمانى أو سلافى أو بلقانى ، وأن القول بأن يهود العالم مشتقون من تلك الطائفة الصغيرة العدد نسبياً زعم ظاهر البطلان ، أثبت بطلانه عدد كبير من علماء الأجناس ومن بينهم بعض الباحثين من اليهود أنفسهم .

إن الدعاية الصهيونية لم تتورع عن طمس الحقائق وإفساد التاريخ ، ولكن هناك دراسات وأبحاث تاريخية وأنتولوجية ترجع إلى عهد سابق لتلك الدعاية وعلم الأجناس — على كل حال — علم يستند إلى المشاهدات المحسوسة المسجلة تسجيلاً دقيقاً ، وعلى مقاييس وملاحظات لا تشمل الشك أو التأويل .

وهو يعتمد فوق كل شيء على قواعد الوراثة المقررة وعلى أن

الصفات الجسدية للأجداد يتوارثها الأبناء والأحفاد طبقاً لنظام مقرر ثابت تخضع له جميع الكائنات من نبات وحيوان وبشر . وليس مما يجوز في أى عصر أن تظهر في أى جنس من الأجناس صفة جديدة لم تكن من قبل شائعة بين أبناء ذلك الجنس . فإذا امتاز جنس بالشعر المخلخل ، استحال أن يظهر بينه أفراد شعرهم مسترسل وبيض الوجوه لا يولد لهم أبناء سود . وهلم جرا .

وأهم الصفات التى يتخذها علماء الأجناس مقياساً للتمييز بين السلالات هى طائفة خاصة من الصفات الجسدية أهمها شكل الشعر ولونه وشكل الرأس والوجه والأنف ولون الشعر والعيون والبشرة وطول القامة .

وقسم العلماء شعوب الأرض جميعاً طبقاً لهذه الصفات إلى ثلاثة أجناس : الزنجى والمخولى والقوقازى ، كما قسموا كلا من هذه الأجناس إلى سلالات يمتاز كل منها بصفات سائدة فى جميع أفرادها ويتوارثها الأجيال الواحد بعد الآخر . وهذه الصفات لا تقبل التغير إلا فى ثلاثة أحوال : الأولى بطيئة جداً تستغرق بضعة آلاف السنين على أقل تقدير والثانية سريعة جداً قد تتم فى بضعة أجيال والثالثة متوسطة قد تحتاج إلى بضعة قرون .

فأما الأولى فتحدث بسبب العزلة والانقطاع عن باقى الجنس . فى بيئة جديدة تكون بعض الصفات الجسدية أكثر ملاءمة لها ، فتفى على مدى الزمن بالتدريج الأفراد التى لا تتصف بهذه

الصفات . وتبقى الأخرى التى تمتاز بها . وذلك ما يعبر عنه ببقاء الأصلىح أو الانتخاب الطبعى ، ومثل هذا التطور بطيء جداً .

أما الثانية فتكون بالاختلاط بعناصر جديدة تعادل الأولى فى العدد أو تزيد عليها فترث الأجيال بعض الصفات من أحد الفريقين ، وبعض الصفات من الفريق الآخر طبقاً لقوانين الوراثة . وهناك صفات تسمى فى مذهب مندل الصفات الغالبة Dominant وهذه تكون أكثر ظهوراً فى النسل من غيرها على مضى الأجيال ، ومن هذه الصفات الرأس العريض والقامة الطويلة والشعر الأسود والأنف البارز . وغير ذلك .

أما الحالة الثالثة التى تتغير بها الصفات تدريجياً فهى ما يسمى بالانتخاب الزوجى أو الصناعى ويحدث ذلك حين يرغب الرجال أو النساء فى صفات خاصة يفضلونها على غيرها . فبكثر الزواج والتناسل ممن يمتازون بهذه الصفات ، ويقل الإقبال على من حرموا منها فيؤدى هذا إلى أن تسود بعض الصفات على مدى الأجيال والقرون .

ولن يكون التبدل أو التغير عظيماً اللهم إلا فى الحالة الثانية ، أى عند الخلط بين عناصر مختلفة ، لأننا فى الحالتين الآخرين لسنا أمام صفات جديدة غريبة . بل أمام صفات كانت موجودة من قبل ، وازدادت بعد ذلك ظهوراً وانتشاراً .

فإذا رأينا جماعة من الناس في أمريكا أو في إنجلترا وإيطاليا
(بسبب وجود جيوش زنجية أمريكية في أثناء الحرب الأخيرة)
لها نصيب واضح من الجنس الزنجي فإن من العبث أن نزع أن هذه
الصفات قد هبطت من السماء أو خرجت من باطن الأرض ، بل
لا بد لها أن تكون نتيجة اختلاط بافراد من الزنوج . كذلك إذا
رأينا طوائف عديدة من اليهود يمتازون بالصفات السلافية
أو الجرمانية فأننا نستطيع أن نؤكد أن هذه الصفات تدل دلالة
صريحة على أن هذه الجماعات تنتمي إلى السلالة الجرمانية أو السلافية
وأنها بعيدة عن أن تنتمي إلى بني إسرائيل أو العبرانيين القدماء .

وقد زعم عدد من الكتاب أن اليهود يمثلون جنساً نقياً
لم يدخله عنصر غريب منذ نزل فلسطين أو نزح عنها إلى بلاد أخرى ،
وأنه مثال نادر للصفاء الجنسي الذي لم يتكرر بالامتزاج بأي عنصر
آخر ، وأنه لم يسمح للدم الأجنبي أن يختلط بدمه النقي ، وأن الزواج
بين اليهود ظل مقصوراً على أفراد منهم دون سواهم كما كانت ديانتهم
خاصة بهم لم يحاولوا أن ينشروها بين غيرهم من الناس .

ونحن — في العالم العربي — نعلم على كل حال أن الزعم بأن
الدين اليهودي كان مقصوراً على بني إسرائيل زعم باطل ، فقد
انتشر الدين اليهودي في جهات مختلفة من الجزيرة العربية . وفي
القطر المصري نفسه ، قبل الإسلام بقرون عديدة . وانتشر بوجه
خاص في بلاد اليمن . وفي القرآن الكريم إشارة صريحة إلى هذا في

سورة النمل في الآيات الكريمة التي تروى قصة ملكة سبأ . وقد جاء في ختامها : « قالت رب إنى ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

ومن المدهش بعد هذا كله أننا لا نزال نلقى بعض العلماء في البلاد العربية يذهبون إلى أن الدين اليهودى مقصور على بنى إسرائيل لأنه ليس من الديانات التبشيرية العالمية ، بل هو دين قومى اختص به قوم من الأقوام دون سواهم . وقد انخدع هؤلاء الكتاب بما يرونه اليوم من كثرة المبشرين بالدين المسيحى وقلة الدعاة للدين اليهودى فظنوا أن هذا كان شأنهم فى جميع الأزمنة والعصور .

وهكذا نشأت تلك الخرافة العجيبة بأن الدين اليهودى ليس من الديانات التبشيرية . وأن اليهود لم يحاولوا فى تاريخهم الطويل أن ينشروا دينهم بين جماعات عديدة وسلالات مختلفة . وهذا أمر يكذبه علماء اليهود أنفسهم فى أى وقت من الأوقات . وسنورد خلال هذا المقال مقتبسات من كتاباتهم تدل على الجهود العظيمة التى بذلت لنشر الدين اليهودى ولنكتف هنا بالإشارة إلى المقال الذى كتبه الأستاذ اليهودى ليوى H. H. J. Loewe أستاذ اللغة العبرية فى جامعة أكسفورد فى دائرة المعارف البريطانية^(١) إذ يقول عن قيام اليهود بالتبشير ما نصه :

“ The jew when confronted with Paganism omnipot-

(١) مادة Judatism فى مجلد ١٣ صفحة ١٦٥

ent and universal, has engaged in active proselytization and Classical authors testify to the vigour of the jewish missionary enterprise ...”

« نشاط اليهود إلى التبشير ، عند ما رأوا الوثنية قوية النفوذ منتشرة في العالم ... والكتاب القدماء (يونان ورومان) يشهدون بقوة النشاط التبشيري الذي قام به اليهود . »

وقد أراد هذا الأستاذ أن يميز بين مسلك اليهود نحو الوثنية التي لم يألوا جهداً في التبشير بين اتباعها وبين مسلكهم نحو المسيحيين والمسلمين الذين لم يجد اليهود حاجة إلى التبشير بينهم . لأن ديانتهم على كل حال « لا بأس بها » ، وإن لم تبلغ في نظرهم شأو الدين اليهودي .

وللكاتب الحق من غير شك في أن يفضل ديانتهم وأن يمدحها كما يشاء . ولكن الزعم بأن اليهود لم ينشروا دينهم بين النصارى يحتاج إلى شيء من التعديل . من الجائز أنهم لم يلجأوا إلى التبشير بين النصارى لإدخال جماعات منهم في زمرة ولكنهم لجأوا في العصور الوسطى وفي الأزمنة الحديثة أيضاً ، إلى ادخال الآلاف من النصارى في دينهم بطريق الزواج كما سنرى في موضع آخر من هذا المقال .

من المسلم به — إذن — أن اليهود بذلوا جهوداً عظيمة لنشر دينهم بين الأمم في أثناء العهود الوثنية . فإذا ذكرنا أن موسى عليه السلام كان يعيش في القرن الخامس عشر قبل الميلاد على وجه

التقريب وأن داود عليه السلام تولى الملك في القرن الحادى عشر قبل الميلاد على وجه التحقيق ظهر لنا أن النشاط التبشيرى لليهود قد ابتدأ قبل ظهور المسيحية ببضعة عشر قرناً . ولا شك أنه استمر بضعة قرون أخرى في العهد المسيحى إذ كانت الوثنية بعد سائدة في الدولة الرومانية وفي الأقطار المجاورة لها في العالم القديم . وهكذا لا يكون من الإسراف فى شيء أن نقول أن اليهود قضوا بضعة عشر قرناً يعملون بجد ونشاط فى نشر دياتهم بين شعوب وأمم لا تمت إلى بنى إسرائيل بصلة . وهذه الشعوب قد اعتنقت الدين اليهودى وهى تعيش فى أوطانها على أيدي مبشرين ودعاة انتشروا فى مختلف الأقطار . وهؤلاء الدعاة أنفسهم ليسوا دائماً من أصل فلسطينى . بل قد يكونون ممن اعتنقوا الدين اليهودى وتحمسوا له وعملوا على نشره .

كذلك ليس بصحيح ما يزعمه بعض الكتاب من أن انتشار اليهود فى العالم كان نتيجة لتشتتهم فى البلاد Diaspora بسبب اضطهاد قيصرية روما لهم ، التى كان آخرها هدم معابدهم بواسطة القيصر ادريانوس ومن الجائز أن هذه الاضطهادات ساعدت على انتشار اليهود ومضاعفة جهودهم التبشيرية فى مختلف الأقطار ولكن من البديهى أن هذه الأعمال التبشيرية الجديدة إنما كانت متابعة للجهود السابقة التى أشار إليها الأستاذ ليوى ، والتى شهد بقوتها كتاب اليونان والرومان .

ولا بد هنا من التنبيه إلى خطأ شائع طالما يقع فيه الناس جميعاً عامتهم وخاصتهم وهو خطأ لا يزال يرتكب إلى وقتنا هذا ، وهو أن الناس عند ما يتحدثون عن الشعوب والأجناس يخلطون بين السلالة والدين واللغة ، وبين انتشار قوم من الأقوام وانتشار ثقافتهم أو ديانتهم . فإن كل شعب من الشعوب يستطيع أن يعتنق أى دين من الأديان . وأن يتعلم أى لغة من اللغات . ولكن هذا لا يغير من جنسه ومن سلالاته ، لهذا وجب أن نفرق بين الاسرائيليين من سكان فلسطين وبين اليهود الذين اعتنقوا الدين اليهودى ، ولم يكونوا فى يوم من الأيام من سكان فلسطين .

ومن الجائز أن عدداً كبيراً من الاسرائيليين قد هاجروا من فلسطين بسبب ما تعرضوا له من الاضطهاد — مع أنه كان فى الغالب اضطهاداً سياسياً لا دينياً — ولكن الدين اليهودى قد سبق له الانتشار فى أقطار وجهات عديدة ، قبل أن تولد الدولة الرومانية نفسها ، واستمر هذا الانتشار فى عهد الدولة الرومانية ولا شك فى أنه دام أيضاً بعد سقوط تلك الدولة .

من الواجب — إذن — على كل مفكر أن يفرق بين انتشار بنى إسرائيل وبين انتشار دينهم . بل ومن الواجب أن نذكر أن انتشار الدين اليهودى قد خلق أجيالا وطوائف من اليهود لا تمت إلى بنى إسرائيل بشئ سوى صلة العقيدة . أو بعبارة أخرى إن

انتشار اليهودية قد قضى على بني اسرائيل كسلالة جنسية ممتازة لأننا لو فرضنا جدلاً أن الذين حملوا الدين اليهودى إلى الأقطار المختلفة كانوا من أصل فلسطينى ، فإنهم لم يكونوا سوى قطرة فى بحر من شعوب وسلاسل لا تربطها بالاسرائيليين رابطة جنسية أو سلالية . وفى هذا يقول الأستاذ أوجين بتار أستاذ علم الأنثروبولوجيا فى جامعة جنيف :

“ Tous les Juifs sont loin d'appartenir. à la race juive ... ”

« إن جميع اليهود بعيدون عن الانتماء إلى الجنس اليهودى ^(١) »
ثم يقول فى مكان آخر :

“ Les Israelites constituent une Communauté religieuse et sociale, certainement très puissante, très cohérente, mais ses elements sont extrêmement heterogènes ”.

« إن اليهود يؤلفون جماعة دينية اجتماعية قوية جداً من غير شك ، شديدة التماسك ، ولكن العناصر التى تتألف منها متنوعة تنوعاً عظيماً ^(٢) . »

لا شك أن الدين اليهودى قد نشأ بين بني اسرائيل فى أرض فلسطين ، وأنه انتشر من فلسطين فى جميع أنحاء العالم القديم

(١) ص ٤١٣ من كتاب

Eugene Pittard; Les Races et L'Histoire,

(٢) ص ٤٣٠ من نفس الكتاب .

بواسطة اليهود التي بذلها أصحاب هذا الدين أول الأمر ثم جهود الذين تعلموه منهم بعد ذلك . وقد بلغ انتشاره إلى أرض الصين شرقا وإلى حوض الرين وبلاد أوروبا غربا . وأنه إذا كانت هنالك وحدة جنسية لاتباع هذا الدين في أيامه الأولى فإن هذه الوحدة لم تلبث أن فقدت تماما بسبب هذا الانتشار الواسع العظيم الذي استغرق قرونا عديدة .

وليس من السهل أن نتتبع بدقة الطرق التي سلكها الدين اليهودي في توسعه وانتشاره فإن تلك الجهود العظيمة التي بذلها أتباعه لا يمكن أن تقع تحت حصر . وأكثرها قد حدث في ظروف وأقطار تاريخها غير معروف على وجه الدقة . فإننا نعلم أن بلاد اليمن والحبشة قد انتشر فيها الدين اليهودي بواسطة الدعاية والتبشير . ولكن التاريخ القديم لكل من هذين البلدين لا يزال مجهولا في تفاصيله الدقيقة التي تمكننا من أن نعرف كيف أقبل الناس على اعتناق هذا الدين .

وفي وسعنا — مع ذلك — أن نشير إلى ثلاثة طرق رئيسية نعرف أنها خطوط الانتشار الكبرى للمذهب اليهودي ، والتي أدت إلى اعتناق الديانة اليهودية بواسطة شعوب بأكملها في بعض الأحيان .

١ — الطريق الأول طريق شرقي شرقي يمتد من فلسطين شرقا إلى العراق ، وغربا إلى مصر وبرقة وبلاد المغرب وأسبانيا والبرتغال . ويهود هذا الاقليم لا يزال كثير منهم يعيشون في ربوعه

وأرجائه . ففي بغداد وحدها عشرات الآلاف من اليهود ، وفي شمال
أفريقية منهم عدد كبير أيضاً ، وقد كان لهم في أسبانيا شأن خطير ،
واشتركوا في الحضارة الإسلامية تحت ظل الدولة العربية في جميع
ممالكها ودولها ، وفي هذه الأقطار لم يلق اليهود أى ضرب من
ضروب الاضطهاد . ولذلك مزجوا ثقافتهم بالثقافة العربية وعاشوا
بين المسلمين في هدوء لا يشوبه اضطهاد أو اضطراب سوى ما قد
تعرض له البلاد عامة في أيام المحن والأزمات ، ولم يكد الحكم
الإسلامي أن يزول من شبه جزيرة أيبيريا حتى أحس اليهود بالفرق
الهائل بين حكم المسلمين وحكم الذين خلفوهم . فقد آذاهم الحكم
الإسباني وأنزل بهم ضروب العسف والبغى حتى اضطروهم إلى
المهاجرة والتشرد ، ففتحت لهم الدولة العثمانية أبوابها ونزل أكثرهم
بلاد البلقان والأناضول ، والتجأ فريق منهم إلى بلاد الشام .

هذه الطائفة التي انتشرت على طول هذا الطريق الشرق
الغربي وفي أقطار الدولة العثمانية تؤلف شعبة خاصة من اليهود
تسمى طائفة سفردم . ولا يزيد عددها على عشر عدد اليهود
في العالم . والمجموعة التي تعيش في البلقان تتكلم فيما بينها باللغة
الأسبانية ولذلك يدعوهم الأستاذ بتار « اليهود الأسبان » . وكثير
منهم يسمون أنفسهم موريسكوس Moriskos وهو لفظ مشتق
من كلمة المور التي يطلقها كتاب التاريخ على « عرب ، أسبانيا وشمال
أفريقية . ويطلقها علماء الأنثروبولوجيا على سلالة من السلالات

البربرية ، تمتاز بصفات جسدية خاصة ، منها الوجه البيضى الشكل
والأنف البارز المحذب والتقاطيع المليحة . وهم الذين أسسوا دولة
المرابطين فى بلاد المغرب وأسبانيا^(١) .

ولاشك أن فى تسمية هؤلاء أنفسهم بأنهم « مور » أى عرب
أو بربر رداً قاطعاً على من يزعم أن اليهود كلهم من بنى إسرائيل .
ومع ذلك فإن الكتاب متفقون على أن يهود الشرق الأوسط
وشمال أفريقية بل وجميع طائفة سفردم هم أقل اختلاطاً من غيرهم
وأجدر من سواهم بأن يشتملوا على نسبة لا بأس بها من الدم
الإسرائيلى الأصلى نظراً لقربهم من الوطن الإسرائيلى الأول .
ومع ذلك فإن من الثابت عند علماء الأجناس أن السفردم يشتملون
على سلالات متعددة . وإن كانوا أقل اختلاطاً من غيرهم .

٢ — الطريق الثانى الذى سلكه اليهود هو طريق القوقاز .
وكان اليهود فى العصور الوسطى يؤلفون مجموعة هامة فى بلاد القوقاز
حتى ظن بعض الكتاب أن هذا هو الطريق الذى انتقل بواسطته
إلى روسيا . وسرى بعد قليل خطأ هذا الرأى . وربما كانت هذه
المجموعة القوقازية مجرد شعبة من المجموعة الأولى كما أن هنالك
فرقا أخرى امتدت من الشرق الأوسط إلى إيران وتركستان .
ولعل هذا أيضاً هو الطريق الذى انتقل به الدين اليهودى إلى الهند
وبلاذ الصين .

(١) راجع فى دائرة المعارف البريطانية مادة Moors .

وليس لليهود اليوم شأن كبير في إقليم القوقاز . ولكن من الجائز أن وجودهم هناك كان من جملة العوامل التي أدت إلى انتشار الدين اليهودي بين شعب الخزر في أيام الإمبراطور شلمان . ففي ذلك الوقت اعتنق الخزر جميعا هذا الدين دفعة واحدة . وهذا من الأمثلة التاريخية القليلة التي نعرفها عن اعتناق شعب كامل للديانة اليهودية .

(٣) أما الطريق الثالث فإنه من غير شك أهم هذه الطرق جميعا وأعظمها خطراً في تاريخ الطوائف اليهودية كلها ولا يقلل من خطره أننا غير ملهين إماما صحيحا بالخطوات التدريجية التي أدت إلى الانتشار الواسع للدين اليهودي على طول هذا الطريق وعلى الأخص في حوض نهر الرين وفي بولندا وروسيا الغربية . وقلة إمامنا بهذه الحوادث يرجع إلى سببين : الأول أن هذا الانتشار حدث أكثره في عصور لم ينفذ إليها ضوء التاريخ وبين الشعوب الجرمانية والسلافية في عهودها الأولى أي في أزمان جاهليتها . الثاني أن انتشار الديانات هو بطبعه ليس من الأمور التي يسهل على المؤرخين تتبعها وتحقيقها ولكن العبرة بالنتيجة على كل حال . وليس هنالك أدنى شك في تلك النتيجة ، وهي أن شعبا يهوديا كبير العدد قد تم تكوينه قبل ميلاد المسيح بقرنين أو ثلاثة في الحوض الشمالي لنهر الرين ، ثم تفرعت منه مجموعات أخرى في بولندا وفي روسيا الغربية ، وقد ازدادت هذه المجموعات في العدد برغم ما تعرضت له من

الاضطهاد حتى أربى عددها على تسعة أعشار اليهود في العالم .

هذه هي المجموعة الكبرى الذى يطلق عليها اسم اليهود الاشكنازم وهي تتكلم فيما بينها لغة يدش yiddish وهي تطابق لغة الإقليم الشمالى الغربى من ألمانيا . وعلى الرغم من أنها لغة ألمانية فإنها تكتب بالحروف العبرية وقد دخلت هذه اللغة مفردات من لغات أخرى كالمصطلحات الدينية المشتقة من اللغة العبرية وكذلك عدد من الكلمات السلافية بعد الاختلاط بالسلاف . ولكن هذا الاقتباس لم يغير من طبيعة اللغة شيئا . وقد وصفها كاتب يهودى فى دائرة المعارف البريطانية بأنها من لغات ألمانيا السفلى . . أى ألمانيا الشمالية الغربية ولهذا السبب اختلفت بعض الاختلاف عن اللهجة الألمانية الحديثة .

تكتب هذه اللغة بحروف عبرية كما ذكرنا . والسبب فى ذلك يرجع إلى أن الدين اليهودى قد انتشر بين الألمان وهم فى زمن جاهليتهم ولم تكن لغتهم تكتب . ولم يكن بد من أن تكتب لهم صلواتهم وعباداتهم . ولذلك اعتنقوا الدين اليهودى والكتابة العبرية فى آن واحد .

وقد ظل الدين اليهودى ينتشر بين الألمان وسكان أواسط أوروبا قبل أن يظهر الدين المسيحى وقبل أن يأخذ فى الانتشار بقرون عديدة وفى أثناء هذه القرون الطوال كان أتباع الدين اليهودى يتزايدون دون أن يتعرضوا لأى نوع من الاضطهاد ، كما أن اضطهاد

اليهود بواسطة الدولة الرومانية لم يبدأ إلا في وقت متأخر نسبياً ، كما أن الاضطهاد المسيحي لليهود لم يبدأ في ألمانيا إلا في القرون الوسطى ، وقد أتيح لليهود ألمانيا فسحة طويلة من الزمن لكي يتزايدوا ويتكاثروا وينشروا دينهم .

من المهم إذاً أن اليهود في ألمانيا والبلاد السلافية هم عبارة عن طوائف من الألمان والسلاف اعتنقوا الدين اليهودي ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد على أيدي أولئك المبشرين النشطين الذين أشار إليهم الكتّاب اليهودي ليوى . وكانت لغتهم منذ البداية لغة ألمانية صميّة وإن كتبت - للأسباب التي أوضحناها - بالحروف العبرية . وليس مما يقبله العقل أن تكون هذه المجموعة اليهودية الجرمانية مشتقة من بنى إسرائيل في ذلك الوقت المتقدم قبل الميلاد ببضعة قرون . كما أن العقل لا يقبل أن يكون يهود اليمن ومصر وبلاد الحبشة - وكلها أقطار قد انتشر فيها الدين اليهودي في ذلك الزمن البعيد نفسه - من أصل فلسطيني . وسنرى فيما يلي تأييداً لهذا الرأي فيما كتبه علماء اليهود أنفسهم .

انتشرت النصرانية بعد ذلك في العصور الوسطى وبدأ ذلك الاضطهاد الطويل الذي عاناه اليهود على أيدي النصارى . ومع ذلك فإن جهود النصرانية وانتشارها في أوروبا والاضطهاد الذي تعرض له اليهود لم يحل بينهم وبين امتصاص عناصر جديدة بطريق الزواج ، وفي ذلك يقول الأستاذ « ربلي » :

« من المرجح أن كثيراً من الدم المسيحي قد امتصه اليهود

بواسطة الزواج الخفى أو المخالف للقانون irregular فلقد سنت قوانين كثيرة فى العصور الوسطى تحرم على اليهود أن يتخذوا خادمت من النصرى . ولكن هذه القوانين كانت قليلة الغناء لأننا نجد أحد الأساقفة فى بلاد المجر عام ١٢٢٩ يقرر أن هنالك يهوداً عديدين يعيشون عيشة غير شرعية مع زوجات من النصرى وأن المتحولين إلى الديانة اليهودية يعدون بالآلاف ، ثم يقول الأستاذ ربلى : إن هذا التحريم كان مقصوراً على الحرائر أما الأماء فلم يكن هنالك تشريع يحميهن ^(١) .

يرى القارىء أننا قد التجأنا بوجه خاص فى بحثنا هذا إلى علماء الأجناس فإن هؤلاء قد اضطروا لأن يواجهوا مشكلة لم يكن بد من معالجتها . فقد وجدوا أنفسهم أمام ادعاءات عنيفة بأن اليهود جنس نقي لم تدخله عناصر غريبة فى أى عصر من العصور ، وأن يهود العالم الذين يبلغون خمسة عشر مليوناً من الأنفس قد تولدوا جميعاً من الشعب الإسرائيلى الذى عاش فى فلسطين . وهو لابد أن يكون من الجنس السامى . ولو كان هذا الزعم صحيحاً لكان هنالك تشابه فى الصفات الجسدية بين اليهود فى جميع أنحاء العالم . أو لكان هنالك — على الأقل — تقارب فى تلك الصفات وعلى الأخص لأن العزلة الاجتماعية والاضطهاد المتكررة والتشريعات العدوانية كلها مما يساعد على تركيز الصفات المشتركة وتقويتها . غير أن الأنثروبولوجيين بدلاً من أن يجدوا تشابهاً فى الصفات بين اليهود

(١) راجع ص ٣٩٢ من كتاب W. Z. Ripley: Races of Europe

وجدوا اختلافات هائلة ، ورأوا أن كل جماعة يهودية في قطر من الأقطار لا تختلف اختلافاً جوهرياً في صفاتها الأنثروبولوجية عن سائر سكان ذلك القطر . ويعتمد علماء الأجناس في دراستهم على الصفات التي لا تتأثر بالبيئة ولها قيمة وراثية كبيرة . وقد استعرض كل من الأستاذين ربلي وبتار صفات الطوائف اليهودية في مختلف الأقطار وحللوها هذه الصفات تحليلًا دقيقاً فوجدوا أن اليهود في أفريقية الشمالية لا يختلفون عن العرب والبربر ، وفي ألمانيا يشبهون جميع الألمان شهاً واضحاً ، وبين السلاف لا يختلفون عن مواطنيهم من السلاف . وكذلك قرر علماء الأجناس أن بعض الصفات التي يزعم أنها تميز اليهود مثل الأنف البارز ليس شائعاً بين جميع طوائف اليهود . كما أنه واسع الانتشار بين سلالات وأجناس عديدة مثل الأرمن وسكان الأناضول وغيرهم .

والمقام لا يسمح لنا بأن نورد هنا هذه الأبحاث الأنثروبولوجية على وجه التفصيل ولكن حسبنا أن نورد النتائج التي وصل إليها هؤلاء العلماء وكلهم من أخلص الناس للعلم وهم أبعد الناس عن التعصب الديني أو الجنسي . والأستاذ ربلي قد ألف كتابه عن أجناس أوربا في أواخر القرن الماضي قبل أن تنشأ المملكة الصهيونية ولذلك كانت لأقواله مكانة خاصة وقد قال في سياق بحثه :

أن تسعة أعشار يهود العالم يختلفون عن سلالة أجدادهم اختلافاً واسعاً ليس له نظير . وإن الزعم بأن اليهود جنس نقي حديث خرافة ، ولقد أصاب رينان في تأكيدده بأن كلمة يهودي ليس لها معنى

أنثروبولوجي لا في أوروبا ولا في حوض نهر الطونة على الأقل .
وصدق الأستاذ لمبروزو في ملاحظته بأن اليهود الحديشين هم أدنى
إلى الجنس الآري منهم إلى الجنس السامي^(١) .

وجاء في أثناء بحث الأستاذ بتار عن اليهود ما يلي :

“Les Juifs appartiennent à une communauté religieuse et sociale, à laquelle sont s'aggreger, de tous temps, des individus appartenants à des races diverses. Ces Juadisés ont pu venir de tous les horizons ethniques, tels Falacha de L'Abyssinie, ou les Allemands du type germanique: tels les Tamils Juifs noirs de L'Inde, ou les Khazares, que L'on suppose être de la race turque... il est impossible de croire que les juifs blondes ou châtons, aux yeux clairs, qu l'on rencontre souvent dans l'Europe central, peuvent être apparentés, zoo-logiquement aux populations Israelites originelles, qui avais, judis, leur habitat dans les environs du Jourdan.”

« أن اليهود عبارة عن طائفة دينية اجتماعية انضم إليهم في
جميع العصور أشخاص من شتى الأجناس . وهؤلاء المتهودون
جاءوا من جميع الآفاق . فمنهم الفلاشا سكان الحبشة ومنهم الألمان
ذوو السحنة الجرمانية ومنهم التامل — اليهود السود — من الهند
ومنهم الخزر والمفروض أنهم من الجنس التركي .

ومن المستحيل أن نتصور أن اليهود ذوى الشعر الأشقر
أو الكستنائي والعيون الصافية اللون الذين نلقاهم كثيراً في أوروبا
الوسطى يمتون بصلة القرابة — قرابة الدم — إلى أولئك

الإسرائيليين القدماء الذين كانوا يعيشون بجوار نهر الأردن (١). وبعد أن يذكر الأستاذ بتار أن عدد اليهود في العالم لا يقل عن اثني عشر مليوناً من الأنفس يتساءل : أيمكن أن يكون هذا العدد الهائل قد توالد — مع الاضطهاد والمذابح — من أولئك الخمسين ألفاً الذين شردوا في عصر أدريانوس حسب بعض الروايات ؟ ثم يرد على هذا السؤال بأن هنالك مجموعات كاملة قد تهودت وأضافت جموعها الهائلة وصفاتها الجسدية إلى الفريق الاسرائيلي .

ذلك هو الرأي القاطع الذي أدلى به باحث علامة جليل يعد من قادة الباحثين في علم الإنسان . ومن الجائز أن بعض الصهيونيين قد يتهمه وأمثاله من العلماء بالغلو والتعصب ضد اليهود ، ولذلك يحمل بنا أن نذكر أنه في ختام بحثه من اليهود يشير بسخرية لاذعة إلى الذين يعادون اليهود بزعم أنهم جنس غريب عنهم ، مع أنهم بذلك يعادون أنفسهم وهم لا يشعرون .

بقي أن نشير إلى آراء بعض علماء اليهود في هذا الموضوع الخطير فلئن كان دعاة الصهيونية قد ملأوا الجو بمزاعمهم وتضليلهم فإن هناك باحثين من اليهود لا يعتمدون في كتابتهم إلا على البحث العلمي الخاص وهؤلاء يدركون تمام الإدراك أنهم لا يميزهم عن مواطنيهم من النصارى سوى اتباعهم للمذهب اليهودي .

(١) نفس المرجع ص ٣١٣ وما بعدها .

ومن أشهر هؤلاء العلماء الأستاذ فريدريخ هرتس صاحب كتاب الجنس والحضارة وقد جاء في سياق كلامه عن التكوين الجنسي لليهود العبارة الآتية :

لم يعد بالإمكان أن يتمسك الإنسان بذلك الرأى الذى يمثل الآريين من جهة واليهود من جهة أخرى كجنسين مختلفين أشد الاختلاف فقد أثبت البحث الأنتروپولوجى بصورة لا تحتمل الجدل ما بين الإثنين من القرابة الشديدة . . . وقد استطاع اليهود فى أثناء تاريخهم الطويل أن يمتصوا مقداراً كبيراً من الدماء الأجنبية وهذه الحقيقة تفسر ما نراه فيهم من اختلاف فى الصور والأشكال ومشابهم للشعوب التى يعيشون بينها . وقد كان اعتناق الديانة اليهودية بواسطة اليونان والرومان والشعوب الأخرى أمراً كثير الحدوث وعلى الأخص فى القرن الأول والثانى قبل الميلاد . أما فى العصور الوسطى فعلى الرغم من جميع العقبات قد حدث مثل هذا التحول إلى الديانة اليهودية وعلى الأخص فى البلاد السلافية وهذا هو السبب فى أننا نرى اليهود الروس والبولونيين يشبهون السلاف شهاً لاشك فيه . . . واليهود الألمان أقرب شهاً بسائر الألمان منهم ياخوانهم فى الدين من أهل فلسطين ^(١) .

هذه نبذة قصيرة ترينا رأى الأستاذ هرتس . ولولا ضيق

(١) س ٣١٣ وما بعدها من كتاب

المقام لأوردنا فصولاً عديدة من كتابه القيم ولكن حسبنا هذا
القدر للدلالة على أن الباحثين العلماء من اليهود لا يختلفون عن
سواهم فيما نوردته من الحقائق وما أدلوا به من الأدلة.

وصفوة القول أن الكثرة الساحقة من اليهود هم أبناء الأقطار
التي يعيشون فيها وأنهم بعيدون كل البعد عن أن يكونوا من نسل
ذلك الشعب القليل العدد الكثير المواهب الذي جاء ذكره
في الكتب المقدسة.

ونستطيع أن نلخص انتشار الدين اليهودي في المراحل الآتية :

١ — عاش بنو إسرائيل في فلسطين حيث أمكنهم أن يؤسسوا
ديانتهم وأن ينشروها بين الجماعات الأخرى التي كانت تسكن
فلسطين . وهؤلاء اعتنق بعضهم الدين اليهودي واختلط
بالإسرائيليين وكان هذا هو الاختلاط الأول في أرض فلسطين
نفسها .

٢ — أخذ اليهود بعد ذلك منذ القرون السابقة للميلاد ينشرون
ديانتهم بين الشعوب الوثنية في مختلف الأقطار والأنحاء مستعينين
على ذلك بالجماعات التي اعتنقت دينهم واشتركت في نشره والتبشير
له ، وكلما ابتعدنا عن فلسطين زادت نسبة العناصر الجديدة التي
دخلت الدين اليهودي حتى كانت شعوب بأكملها تعتنق ذلك الدين .

٣ — وجد اليهود أرضاً خصبة للغزو والانتشار في بلاد

الألمان والسلاف الوثنيين فانتشرت بينهم بدرجة ليس لها نظير في أى قطر آخر فيما نعلم .

وكانت فلسطين دائماً هي الأرض المقدسة التى تحترمها هذه الجماعات كما يحترم المسلمون مكة والحجاز وكما ينظر الكاثوليك إلى روما . ولكن الصلة فى كل هذه الأحوال هي صلة روحية بجمعة وليس صلة القرابة الجنسية .

أما ما يقال من أن لليهود فى جميع الأقطار صور لا يخطئها من ينظر إليهم فقد أثبت العلماء بطلان هذا الزعم كما أثبتوا أن اليهود ينتمون إلى جميع الأجناس السوداء والسمراء والبيضاء والصفراء ، وأنه إذا كان هنالك تشابه سطحى فى بعض جهات أوروبا ، فإن مرجع ذلك إلى أسباب اجتماعية أخصها أن اليهود يتزوجون فيما بينهم فى معظم الأحيان وأنهم قد اضطروا لأن يعيشوا فى معزل عن سائر الناس .

أما ما لقيه اليهود من الاضطهاد فى أوروبا فإن هذا لا يرجع إلى أنهم جماعات غريبة فى أوطانهم بل كان اضطهادهم مظهرآ من الاضطهاد الدينى الذى صبغ القارة الأوروبية بالدماء . والذى لم يكن ضحاياه اليهود وحدهم .

وهكذا يبدو لنا فى وضوح وجلاء أن يهود أوروبا — وهم عماد الصهيونية ودعاتها — هم من أصل أوربى كما أن يهود اليمن من أصل يمنى ويهود الحبش من أصل حبشى ومن الافتراء على الحقيقة

أن يقال إن اليهود شعب لا وطن له ، بل هم أعضاء في شعوب كثيرة ، ولهم أوطان عديدة ، وإن اختلفوا في الدين عن سائر السكان فيها .

يرى القارئ فيما تقدم أن صوت العلم في هذا الموضوع الخطير صريح لا لبس فيه ولا إبهام ، ولا خفاء فيه ولا غموض . وأن الزعم بأن يهود أوروبا من أصل فلسطيني ، زعم باطل قد فنده العلم وأثبت بطلانه في صورة لا تدع مجالاً للشك . فهل خفيت هذه الحقيقة عن السياسة البريطانية في أثناء الحرب العالمية الأولى حتى اندفعوا إلى تأييد السياسة الصهيونية بكل ما تملكه الدولة البريطانية من القوة والسلطان ؟ وضخوا في سبيل تحقيق هذه السياسة بشرف وعودهم التي ارتبطوا بها ارتباطاً مقدساً بأن يؤيدوا القضية العربية في جميع الأقطار العربية ؟

إن السياسة البريطانية الصهيونية التي تضمنها وعد بلفور اتجهت نحو إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وعبارة (وطن قومي) National Home تفترض أن اليهود قوم من الأقوام وليسوا مجرد أتباع دين من الأديان المقدسة . واتجاههم نحو إنشاء هذا الوطن القومي في فلسطين تسليم من جانبهم بأن هنالك صلة بين تلك القومية وبين ذلك الوطن .

فهل كان سياسة بريطانيا يجهلون أنهم بزعمهم هذا يكذبون على العلم وعلى التاريخ ، أو كانوا يدركون أنهم يحارون الدعاية الصهيونية وهم يعلمون علم اليقين أنها دعاية باطلة ؟

ليس في العالم اليوم أمة من الأمم ولا قومية من القوميات تكونت من جمع أفراد وجماعات مبعثرين في مختلف الأقطار ، بحجة انتمائهم إلى ديانة من الديانات . فهل جهل السياسة الإنجليز هذه الحقيقة أيضاً حتى أقدموا على تأييد السياسة الصهيونية عن إدراك واقتناع ؟

إن الرد على هذا السؤال ليس بالأمر العسير ولدينا أدلة وافية من كتابة المؤرخين والسياسة الإنجليز نوردتها هنا لكي نوضح هذه الناحية الغامضة من سياسة بريطانيا :

فقد جاء في الجزء الرابع من كتاب المؤرخ العظيم المستر تمبرلي في تاريخ مؤتمرات الصلح التي عقدت بعد الحرب العالمية الأولى ما يأتي كانت لدى بريطانيا أسباب خاصة دعته إلى السياسة التي اتبعتها في فلسطين . وهذه الأسباب التي قد نتبينها في المزايا البديهيّة لتغطية قناة السويس من الناحية الشرقية في إقليم يسكنه عنصر من الناس يرى مصلحته في تأييد بريطانيا وموازرتها ، هذا إلى جانب ما تناله من تأييد اليهود في جميع أنحاء العالم . هذه هي النظرة البعيدة التي اقتضتها المصالح البريطانية الاستعمارية^(١) .

(١) Harold Temperley: History of the peace Conference
Vol. IV, p. 7.

هذه العبارة ذات المدلول الواضح جاءت في كتاب من الطراز الأول لمؤرخ من كبار المؤرخين البريطانيين وقد شاءت المقادير أن تسخر من تلك النظرة البعيدة ما وسعها السخرية - فأرتنا العصابات الصهيونية التي أريد منها مؤازرة بريطانيا وتأييدها - تتمكّل بالبريطانيين أشد التمسك وتذيقهم مر العذاب .

وهناك مؤلف آخر وهو السير مارتن كونواي عاجل هذا الموضوع بصراحة يشكر عليها فقال في الفصل الثاني عشر من كتابه عن فلسطين ومراكش ما يلي :

« إن الخطر الحقيقي على قناة السويس لا يجرى من الغرب . بل من الشرق . فمن ناحية فلسطين يجرى الخطر الجدى دائماً . ومن وراء فلسطين سوريا ومن وراء سوريا الأتراك ومن وراء الأتراك أية دولة قد تكون معادية لبريطانيا : ألمانيا فى الماضى . وروسيا فى المستقبل . . . من يدري ؟ ولقد أثبت الفرنسيون أنهم أنداد ينافسوننا لا أصدقاء يعاونوننا ولذلك كان قبض بريطانيا على فلسطين مصالحة امبراطورية من الطراز الأول ، .

ثم يمضى الكاتب بعد ذلك لى يشرح فائدة وجود طائفتين مختصمتين فى فلسطين وما يتطلبه هذا من وجود هيئة خارجية محايدة لى تحمى كل فريق من عدوان الآخر وهذه الحالة - فى نظره - حالة مثالية idcal لأنها تتطلب بقاء بريطانيا فى فلسطين إلى أجل غير محدود .

وهكذا تجد في كتابة العلماء والسياسة البريطانيين أنفسهم ردّاً شافياً وافياً على السؤال الذي سبق لنا إيرادَه : وهو هل كان تأييد السياسة البريطانية للصهيونيين عن عقيدة وإيمان بصدق دعواهم وصحة قضيتهم ؟ فمن الواضح وضح النهار الساطع أن بريطانيا جارت السياسة الصهيونية من أجل أسباب خاصة وهي تعلم أن الدعوة الصهيونية لا تستند إلى أساس . فلقد وجه إليهم يهود بريطانيا ممن لا يوافقون على المبادئ الصهيونية كتاباً قالوا فيه إن اليهودية دين وليست سياسة ، وأن في إيجاد صلة سياسية بين اليهود وبين البلاد المقدسة خطراً على اليهود في جميع أنحاء العالم لأن هذا يصممهم بأنهم غرباء في أوطانهم . وهكذا يكون السياسة البريطانيون قد مضوا في تأييد الدعوة الصهيونية ، وهم مدركون بطلانها وذلك لأسباب خاصة تتصل بالسياسة الاستعمارية كما توهموها في ذلك الوقت .

ولم يكن بد لهذه السياسة الاستعمارية من أن تتوارى خلف ظاهرة العطف على الدعوة الصهيونية ولذلك نرى صك الانتداب على فلسطين نفسه يكرر تلك الخرافة مرة أخرى فيشير إلى الاعتراف بالصلة التاريخية التي تربط الشعب اليهودي ! بفلسطين ، وإلى الأسباب التي اقتضت إعادة إنشاء وطنهم القومي في تلك البلاد . وهكذا نرى في مقدمة صك الانتداب افتئاتاً على العلم وافتراء واضحاً على الحقيقة والتاريخ ، ورجال العلم يقررون في غير لباس

ولا غموض أن جميع يهود العالم بعيدون عن الالتئام إلى الجنس اليهودي القديم .

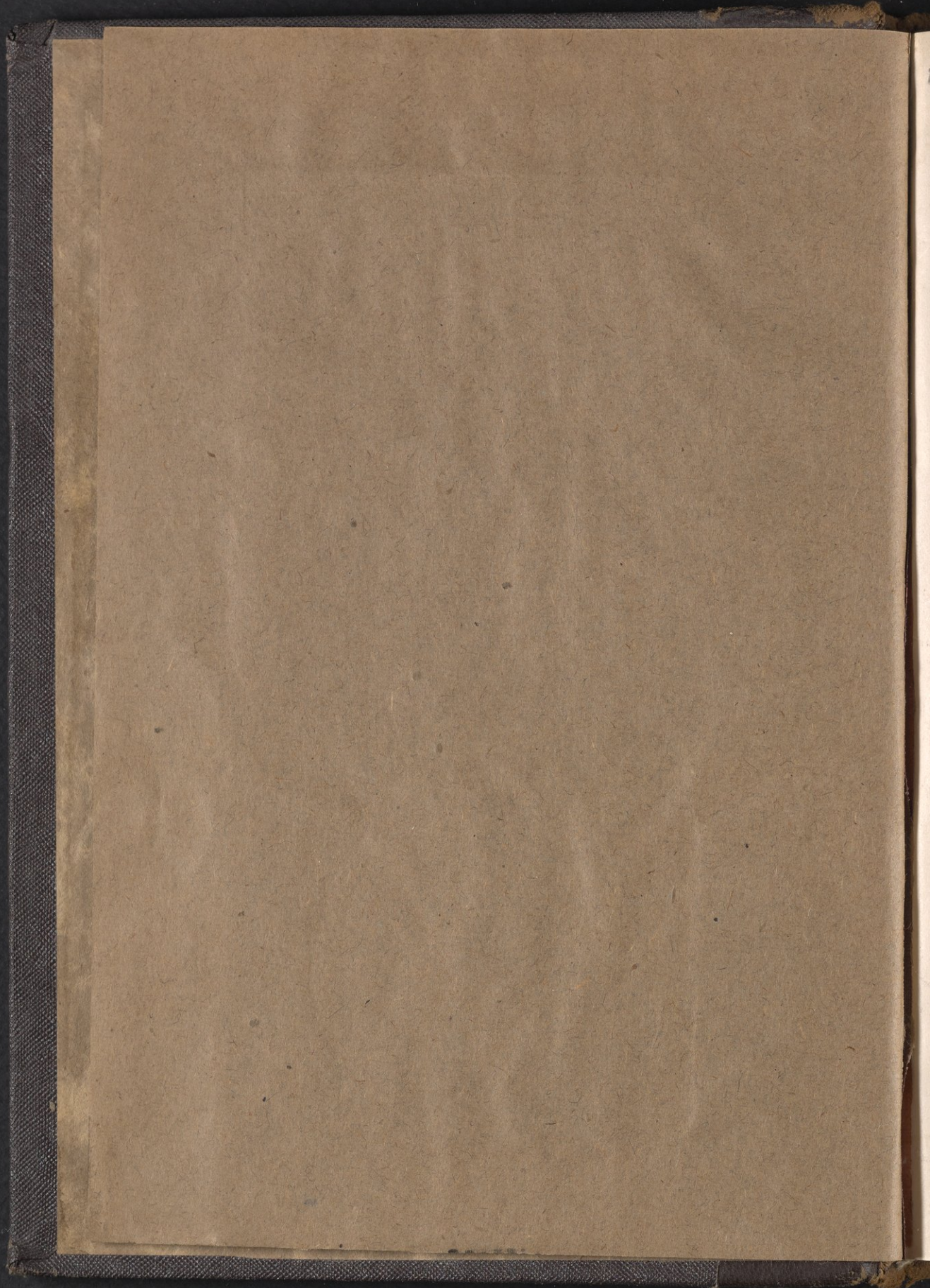
والعلم يفند الدعوة الصهيونية ويحكم بزيفها وبطلانها كما يقضى بأن تصریح بلفور وصك الانتداب وثيقتان لاتستندان إلى حق ولا بد للعرب أن يعملوا على نقضهما وإلغائهما .

وليست السياسة الصهيونية سوى سياسة استعمارية عدوانية وهى تشبه فى كثير من صفاتها السياسية النازية الجرمانية . وليس فى هذا وجه غرابة ، لأن قوامها يهود جرمانيون ولذلك لم تختلف أساليبهم عن الأساليب الهتلرية فى شىء . فقد كان النازيون أيضا يمسحون علم الأجناس ويصبغونه بالصبغة التى تتفق مع شهواتهم فابتكروا شيئا سموه الجنس الآرى زعموا أنه أفضل الأجناس وأن من الواجب أن تكون له الزعامة والسيادة على جميع الأجناس .

والعلم ينكر وجود شىء اسمه الجنس الآرى ، بل الآرية ثقافة ولغة تتمثل فى تلك اللغات المنتشرة فى الهند وإيران وأوربا وليس لها أساس فى جنس أو سلالة . كذلك اليهود اخترعوا شيئا سموه الجنس اليهودي وحشروا فيه سلالات مختلفة متباينة ، مع أن اليهودية دين انتشر بين عدد كبير من الأجناس والسلالات التى لا تمت إلى فلسطين بأدنى صلة .

ولئن كانت الدعاية النازية قد انتهت بالنازيين إلى إشهار حرب عالمية فإن الدعوة الصهيونية موجهة إلى قلب البلاد العربية فجدير بأبناء هذه البلاد أن ينتبهوا إلى ما تقوم عليه تلك الدعوة من زيف وبهتان .

أسهبنا نوعا ما في حديثنا عن الاستعمار الصهيوني ، لأنه من جهة نوع فريد بين جميع أنواع الاستعمار ، ولأنه من جهة أخرى أكبر خطر استعماري يهدد العالم العربي . فإنشاء دولة إسرائيل ، تمتد أراضيها من خليج العقبة إلى حدود لبنان ، قد فصم وحدة الأراضي العربية ، فانقطع الاتصال المباشر بين الجانب الشرقي والجانب الغربي للعالم العربي . واحتل الصهليون قطرا من البلاد العربية يقع منها موقع القلب من الجسم ، ولا شك أن هدفهم القريب هو التوسع والانتشار من هذا المركز الاستراتيجي الخطير . واسم الدولة نفسه « إسرائيل » يشير إلى هذا التوسع ، لأن بلاد إسرائيل القديمة هي القطر العربي الذي عاصمته نابلس والذي يحتله العرب الآن . وقد صاح صائحهم « إن إسرائيل لا تستطيع أن تعيش دون ضم » « إسرائيل » فجدير بالعرب أن يدركوا حقيقة خطر الاستعمار الصهيوني على كيانه . وأن هذا الخطر أشد هولا في المستقبل مما كان عليه في الماضي .



DATE

JC
359
M82x
1953

DEC 1973

DEC

JAN 20 1987

AUC - LIBRARY



DATE DUE

28 APR 1990	A.U.C.
26 DEC 1990	9 FEB 1994
	3 - JUN 1998
A.U.C.	
29 JUL 1993	
A.U.C.	
23 JAN 1994	



1 0 0 0 0 1 2 1 6 8 5

